الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ٩٥ — ٢٩ ابريل سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

3me Année, No. 95.

Lundi-29-4-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٩٥ «القاهرة فى يوم الاثنين ٢٦ محرم سنة ١٣٥٤ — ٢٩ ابريل سنة ١٩٣٥» السنة الثالثة

فهرس العـــدد

أعياد الحياة والحرية

تخرج الرسالة اليوم إلى الناس فى (شم النسيم)؛ وشم النسيم فى مصر عيد اكتمال الربيع، يخرج الناس من دورهم فيه إلى الطبيعة السافرة المجلوة، فى العراء الكاسى بأفنان الزهر، وفى الهواء الناسم بأنفاس الرياحين، يشهدون افتضاح سر الحياة فى الأرض، وانفتاح باب الجنة على الروض، وانتشار جمال الله فى الكون، وافترار الدهر العابس عن بسمات البشر تفيض فى العيون والصدور، وتشرق على الحقول والدور، وتهيىء القرب بين الله والانسان والطبيعة

لَشَدَّ ماتفعل بالنفوس مشاهد الحياة وذكرى الحرية! فى هذا اليوم يحتفل المصريون فى (شم النسيم) بعودة الروح إلى الدنيا، وهبّة الطبيعة من مرقد الموت؛ وبالأمس كان عيد الفصح المسيحى، احتفل فيه نصارى الشرق، كما احتفل فى مثله من قبله نصارى الغرب، برجعة الناسوت وقيامة يسوع؛ ومنذ أيام كان عيد الفصح اليهودى، احتفل فيه بنو إسرائيل بخروجهم من ظلم الفراعين، وعودة الحرية بهم إلى أرض فلسطين! فلله هذا الفصل الجميل كيف يعود فيه الخَلْق، ويرجع معه الشباب،

وتحيا به الحرية ، ويسبح منه الوجود فى فيض من الشعور القدسى يوقظ فى الانسان أنه حى ، وفى الحى أنه حر ، وفى الحر أنه جميل ، وفى الجميل أنه صالح ، وفى الصالح أنه خليق بملكوت الله وخلافة الأرض

تباركت يا مبدع الربيع ، ومصور الجمال ، ومعيد الخلق ! هذا النيل يتنفس بالحياة ماؤه فما لأنفسنا تموت ؟ وهذا الوادى يتفجر بالخصب ثراه فما لآمالنا تذوى ؟ وهذا الربيع يرف بالحسن نسيمه فما لأخلاقنا تسوء وتقبح ؟ ألسنا جزءاً من الطبيعة نتجدد كما تتجدد ، وندور على قطب الحياة كما تدور ، ونجرى على سنن الكون كما تجرى ؟ إذن فلماذا يعود ابريل فى كل عام فيرد إلى الشجر حُلاه ، وإلى البلابل أغاريده ، وإلى العش زياطه ، وإلى الحيوان نشاطه ، وإلى العالم كله بهاءه ورونقه . ونلقاه نحن فى كل موعد إبان وروده ، فلا نجد عنده وا أسفاه ريشة لجناح ، ولا نفحة لأمل ، ولا جِدَّة لدارس

***

هكذا قضى الله أن يكون الربيع مستأنَف القوة والفتوة والرجاء لكل حى ، ومسترجع الذكَر الممضة ، والأطياف الحزينة لابن آدم ! فهذه الشجرة التى تراها فينانة الأفرع ريَّا الأماليد طالما ورف ظلها السجسج فى هذا الأوان على صبيّ ناعم وهوًى وليد ! كانت عشاً لطائرين بسط الشباب لهما فى الجناح ، وفسح الحب لهما فى الجو ، فيطيران ما شاء الهوى أن يطيرا ، ثم يأويان إليها ، ويغردان عليها ، حتى تقوض العش ونَسل الجناح ويبست الحنجرة ! وهاهى ذى الشجرة عرّاها الخريف عشرين مرة ، وكساها الربيع عشرين مرة ، ولكن ذاوى الشبيبة لن ينضر ، وماضى الحبيبة لن يعود ! !

وهذا المرج الذى تراه موشى البرود منضور الجنبات ، كان فى عام من الأعوام مسرحا لمشهد من مشاهد الصبابة ! انتظمت به عقود الحب ، وانتثرت فيه حبات القلب ، وتبددت عليه خطوات السعادة ثم تصوّح المرج وعاد فاخضوضر وأزهر ، ولكن مضاجع الهوى لن تمهد ، وذواهب الخُطى لن تؤوب !!

وهذا الجدول الرقراق الذى تسمع هسيسه فوق الحصى وتحت الصفصاف ، كان فى ربيع من الأربعة مرآة لوجهين حبيبين قرءا سرار يهما فى صفائه ، ومزجا حديثيهما بخرير مائه ، ثم جف مجراه وما لبث أن فاض ، وانقطع حديثه ثم عاد فاستفاض ، ولكن الوجهين لن يعود بينهما لقاء ، والحديثين لن يكون لانتهائهما ابتداء !

وهكذا يجد الانسان وحده فى كل منظر من مناظر الأرض ، ومظهر من مظاهر الربيع ، أثراً بعد عين ، ودواراً بعد نشوة ، وبِلًى بعد جِدَّة ، وذكرى بعد أمل ! !

***

على أن للربيع يداً على النهضة المصرية لا تكفرها له القلوب ما تجدد على الدهر عيده : تلك هى رجعة الروح فيه إلى حياتنا الاقتصادية ، وما هذه الروح الراجعة إلا بنك مصر ، بثها الله فى نفحات الخلد من أوائل مايو ، فنضّرت من حياتنا ما ذوى ، وأقامت من بنائنا ما هوى ، واتحدت بطبيعة الزمن الموزون ، وحركة الفلك المنتظم ، فهى تتقدم ولا تتأخر ، وتجرى ولا تتمثر ، وتطلب الغاية ولا تحيد

لذلك يعود الربيع كل عام فيفتح للناس هوة الماضى ، ويفتح لبنك مصر وحده باب المستقبل ، فينمو نمو النبات بَرَكةً على بَرَكة ، ويتضاعف تضاعف الحياة شَركة بعد شركة ، ويجذب الوجود المصرى معه إلى السبيل التى يأمن فيها الفناء ويخرج منها إلى العافية !

بعد ثمانية أيام يحتفل المصريون بمرور خمسة عشر ربيعاً على مولده ؛ وسيكون هذا الاحتفال المترقَّب حجة لمصر أو حجة عليها ! فاذا أجمعت على أن يكون احتفالها بعيده احتفالا بنهضتها به وحياتها فيه ، دلت الناس على جدارتها بفضله ، وعرفانها بجميل أهله ، واطرادها مع الكفاية والجد فى سبيله ، وإلا كان احتفالها بهذا العيد العظيم كاحتفالها اليوم بشم النسيم . تحتفل فيه بالفسيخ والعرَق والعهَر ، ثم لاتعبأ بجمال الطبيعة فى جنَّة ولا نَهر !

احمد حسن الزيات

الانتحار

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

حدَّثَ المسيَّبُ بن رافعٍ الكوفيُّ قال: بينا أنا يوماً في مسجد الكوفة، ومعي سعيدُ بنُ عثمان، ومجاهد، وداودُ الأزديّ، وجماعةٌ — أقبلَ فتًى فجلس قريباً منا، وكان تلقاءَ وجهي؛ لا أُمدُّ نظري إلا انطلقَ في سَمْتِه ووقف عليه؛ وكنا نتحدثُ، فرأيتُه يتسمَّعُ إلى حديثنا؛ فلما تكلَّم سعيدٌ، وكان خافتَ الصوت من علَّةٍ به، وكنا نسمِّيه النملةَ الصَّخابة — رأيت الفتى يتزحَّفُ قليلاً قليلا حتى صار بحيث يقعُ في سَماعه حَسيسُ نملتِنا

وكان سعيد يقول: اجتزتُ أنا والشعبيُّ (1) أمسِ بعمرانَ الخيّاط، فمازحَه الشيخُ فقال له: عِندنا حِبٌّ (2) مكسورٌ، تَخيطُه؟ قال: نعم، إن كان عندك خيطٌ من ريح! فقلتُ أنا: فاذهبْ فجئنا بالمِغزَل الذي يغزلُ الهواء لنصنعَ لك الخيط

قال مجاهد: هذا ليس بشيء في نَوادِر شيخِنا وما يتّفقُ له؛ أخبرَني أن رجلاً جاءه في مسئلة، فدخل عليه البيت وهو جالسٌ مع امرأته؛ فقال الرجل: أيُّكما الشعبيّ...؟ فأومأ الشيخ إلى امرأته وقال: هذه . . . !

قال المُسيَّب: وضحكنا جميعاً، وأخذ نظري الغلامَ فاذا هو ناكسٌ حزناً وهماً، وكأنه لا يتسمّع إلينا ليسمع، بل ليشغلَ نفسَه عن شيء فيها، فتتوزّعَ خواطرُه، فيتبدّد اجتماعها على همّه، بصوتٍ من هنا وصوتٍ من هنا، كما يفعل المحزونُ في مغالبة الحزن ومُدافعته، يَشغَلُ عنه بصرَه وقلبَه وسمعَه جميعاً، فيكون الحزنُ فيه وكأنه بعيدٌ منه

فقلت في نفسي: أمرٌ أماتَ الضحكَ في هذا الفتى وكَسر

(١) هو الامام العظيم (عامر بن شراحيل الشعبي) توفي سنة ١٠٣ للهجرة أو حولها، عن بضع وثمانين سنة، وكان في عصره أحد العلماء الأربعة في الاسلام: سعيد بن المسيب في المدينة (ذكرناه في قصة زواج)، والحسن البصري في البصرة (ذكرناه في قصة: بنته الصغيرة) ومكحول في الشام، والشعبي هذا في الكوفة. وكان يشبه في زمانه ابن عباس في زمانه

(٢) الحب بكسر الحاء هو الزير، يستقطر الماء من أسفله فيخرج صافياً، ويقول لرشحه: قطر حب

حِدَّتَه وشبابَه. ثم تحوّلتُ إليه وقلت: رأيتُكَ يابنيّ مقبلاً علينا كالمنصرِف عنا؛ فما بالكَ لم تضحك وقد ضحكنا جميعاً؟

قال: إليك عني ياهذا. وأين مني الضَّحكُ وأنا على شفير القبر، وروح الترابِ ملءُ عينيّ في كل ما أرى. وكأنّ حُفرتي ابتلعت الدنيا التي أنا فيها لتأخذني فيها، وأنا الساعةَ ميتٌ حيٌّ؛ رجلٌ في الدنيا ورجلٌ في الآخرة!

قلت: فأعلمني مابك يابني؛ فلقد احتسبتُ ولداً لي كان في مثل سِنّك وشبابك ولم أُرزق غيرَه، فقلبي بعده مريضٌ به، يتوسّمُه مُفرَّقاً في لِداته مُتوهِّماً أن وجوههم تجمعُه ملامحه؛ فأنا من ذلك أحبّهم جميعاً وأُطيل النظرَ إليهم والتأمُّل في وجوههم، ولستُ أرى أحداً منهم إلا كان له ولقلبي حديث! فان رأيتُه حزيناً مثلك تقطَّعتُ له من إشفاق ورحمة، وطالعني فتاي في مثل همِّه وحزنه وانكساره؛ فيعود قلبي كالعين التي غشّاها الدمع، تحمل أثرَ الحزن ومعناه وبِرَّه، فبُثَّني ما تجد يابنيّ، فلعل لي سبباً إلى كشف ضرِّك أو إسعافك بحاجتك؛ ولعلك تكون قد حزنتَ من أمرٍ قريبِ المُتناوَل هيِّنِ المحاولة، لم يجعله عندك كبيراً أنه كبير، ولكنْ أنك أنت صغير

قال الفتى: مهلاً ياعم، فان ما نزل بنا مما تنقطع عنده الحيلة ولا تنقاد فيه الوسائل، ولا علاجَ منه بالموت يأخذنا ويأخذه

قلتُ: يابنيّ، هذه كلمة ما أحسب أحداً يقولها إلا من أُخذ للقتل بجنايته ولم يَعفُ أهلُ الدم، فهل جنيتَ أو جنى أبوك على أحد؟

قال: إن الأمر قريبٌ من قريب، فاني تركتُ أبي الساعة مُجمِعاً على إزهاق نفسه، وقد أغلقَ عليه الدارَ واستوثقَ من الباب!

قال المسيّب: فكأنما لدغتني حيةٌ بهذه الكلمة، وأكبرتُ أن يكون رجلٌ مسلمٌ يقتلُ نفسه؛ فتناهضتُ، ولكنّ الغلام أمسكَ بي وقال: إنه لا يزال حياً وسيقتل نفسه متى أظلم الليلُ وهدأت الرِّجل

قلت: الحمد لله، إن في النور عقلاً، ولكنْ ما الذي صار به إلى ماقات، وكيف تركته لقَدَرِه وجئت؟

قال الفتى: إنه قال لي: ياولدي، ليس لك أبٌ بعدي؛ فاني

أردتَ اللحاقَ بي فارجعْ مع الليل لنُسْلِمَ أنفسَنا ، وإن آثرتَ الحياةَ فارجعْ مع الصبح لتُسلِمَني إلى غاسلي !

قلت : أفآمِنٌ أنت ألا يكونَ أبوك قد أخرجك عنه لأن عينَيك تُمسكُ يده وتردُّه عما يَهُمّ به ، حتى إذا خلا وجهُه منك أزهق نفسَه ؟

قال : لم أدَعْه حتى أقسمَ أن يحيا إلى الليل ، وحتى أقسمتُ أن أرجع لأموتَ معه ؛ فان لم تُمسكه عينُه أمسكه انتظاري ، وقد فرغَت الحياةُ منا فلم يبقَ إلا أن نفرغَ منها ؛ ومن كان فيما كنا فيه ثم انحدر إلى ما انحدرنا إليه ، لم يُرِ الناس من نفسه ضَعةً ولا استكانة ؛ وإنما خرجتُ لأسألَ هذا الامام (الشعبيّ) وجهاً من الرأى فيمن يقتل نفسه إذا ضاقت عليه الدنيا ، ونزلتْ به النازلاتُ ، وتعذَّر القوت ، واشتدَّ الضرّ ، وتدلَّت به السكنةُ إلى حَضيضها ، وأُلجئ إلى أحوالٍ دقَّتْه دقَّ الرَّحى لما تدور عليه ، ولم يَعُدْ له إلا رأىٌ واحد فى الدنيا : هو أنه مكذوبٌ مزوَّرٌ على الدنيا .

قلت : يابنيّ . فانى أراك أديباً ؛ فمن أبوك ؟

قال : هو فلان التاجر ، ظهر ظهورَ القمر ومُحِق محاقَه ، وهو اليوم فى أحلكِ الليالى وأشدّها انطماسا ، جَهَدَه الفقر ، ويا ليته كان الفقر وحدَه ، بل انتكهتْه العِلَل ، وليتها لم تكن إلا العِللَ مع الفقر ، بل أخذ الموتُ امرأته فماتت همّاً به وبى ، ولم يكن له غيرى وغيرُها ، وكان كلٌّ من ثلاثتنا يحيا للاثنين الآخرين ، فهذا ما كان يجعل كلاً منا لا يَفرَغُ إلا امتلأ ، ولما ذهبَت الأمُّ ذهبت الحقيقةُ التى كنا نقاتل الأيامَ عنها ؛ وكانت هى وحدها تُرينا الحياةَ بمعناها إن جاءتنا الحياة فارغة من المعنى ، وكنا من أجلها نفهم الأيام على أنها مجاهَدةُ البقاء ؛ أما الآن فالحياةُ عندنا قَتْلُ الحياة .. !

قلت : يابنيّ ، فانك والله لحكيم ، وإنى لأَنفَسُ بك على الموت ؛ فكيف ردّتك حياة أمّك عن قتل نفسك ولا تردُّك حياةُ أبيك ؟

قال : لو بقى أبى حياً لبقيت ، ولكن الدهر قد انتزع منه آخرَ ما كان يملك من أسباب القوّة ، حين أخذَ القلبَ الشفيقَ الذى كان يجعله يتمدد إذا فكّر فى الموت ؛ فهو الآن كالذى يحارب عن نفسه تلقاء عدوٍّ لا يرحمه ؛ إن عجز عن عدوِّه قتَل نفسه ليستريح من تنكيل العدوّ به

* * *

قال المسيَّب بن رافع : وأدركتُ أن الفتى يُريد من سؤال الشيخ نِحلةً يطمئنُّ اليها أن يموتَ مسلماً إذا قتل نفسَه كالمضطرّ أو المُكرَه ؛ فأشفقتُ أن أكسِرَ نفسَه إذا أنا حدّثته أو أفتيتُه ؛ وقلت : هذا مريضٌ يحتاج العلاجَ لا الفُتْيا ؛ وكان إمامُنا (الشعبيُّ) حكيما لحنًا فطناً سفَر بين أمير المؤمنين (عبد الملك) وعاهلِ الروم ، فحسدنا العاهلُ أن يكون فينا مثلُه . وقلتُ : لعل الله يُحدث به أمراً . فأخذتُ بيد الفتى اليه ، ومشيتُ أكلّمه وأرفّه عن نفسه . وقلت له : أما تدرى أنك حين فرغتَ من سرور الحياة فرغتَ من غرورها أيضاً ، وأن الزاهد المنقطعَ فى عُرْعُرة الجبل ينظر من صومعته إلى الدنيا — ليس بأحكمَ ولا أبصرَ ممن ينظر من آلامه إلى الدنيا ؟

يابنيّ ، إن الزاهد يحسب أنه قد فرّ من الرذائل إلى فضائله ، ولكن فراره من مجاهَدة الرذيلة هو فى نفسه رذيلةٌ لكل فضائله . وماذا تكون العفّةُ والأمانةُ والصدقُ والوفاء والبرُّ والاحسان وغيرها ، إذا كانت فيمن انقطع فى صحراء أو على رأس جبل ؛ أيزعم أحدٌ أن الصدق فضيلةٌ فى إنسانٍ ليس حوله إلا عشرة أحجار ؟ وايمُ الله إن الخالىَ من مجاهَدةِ الرذائل جميعاً ، لهُو الخالى من الفضائل جميعاً !

يابنيّ ، إن من الناس من يختارهم الله فيكونون قمحَ هذه الانسانية : يَنْبُتون ويُحصَدون ويُطحَنون ويُعجَنون ويُخبَزون ، ليكونوا غذاءَ الانسانية فى بعض فضائلها . وما أراك أنت وأباك إلا من المختارين كأن فى أعراقكما دم نبيّ يُقتَل أو يُطلَب !

قال المسيّب : وانتهينا إلى دار الشعبيّ ، فطرقتُ الباب ، وجاء الشيخ يفتح لنا ، وسلّمنا وسلّم ، ثم بدَرتُ فقلت : يا أبا عمرو ، إن أبا هذا كان من حاله كَيْت وكيت ، فترادفَتْ عليه المصائبُ وتوالت النكباتُ وتواترت الأسقام . . . ثم اقتصصتُ ما قال ابنُه حرفاً حرفاً ، ثم قلت : وإنه الآن

موشكٌ أن يزهق نفسه وسيتبعه ابنه هذا ؛ وقد (هداه الله اليك) لجاء يسألك : أيموت مسلماً من ألجئ وأُكْرِه واضطُرّ واستضاق واختل ، فتحسّى سماً فهلك ، أو توجّأ بحديدة فقضى ، أو ذبح نفسه بنصل نخفت ، أو حزّ في يده بسكين فما رقأ دمه حتى مات ، أو اختنق في حبل ففاضت نفسه ، أو تردّى من شاهق فطاح . . . ؟

وأدرك الشيخ معنى قولي : (هداه الله إليك) ، ومعنى ما أكثرت من الألفاظ المترادفة على القتل وما استقصيتُ من وجوهه ؛ فعلم أني لم أسأله الفُتيا والنّص ، ولكني سألته الحكمة والسياسة ؛ فقال : هذا والله رجلٌ كريم ، أخذته الأنفةُ وعزّةُ النفس ، وما أنا الساعة بمعزلٍ عن همّه ، فنذهب نكلّمه والله المستعان

ومشينا ثلاثتنا ، فلما شارفنا الدار قال الفتى : إنه لا يفتح لي إذا رآكما ، وربما استفزّ بنفسه فأزهقها ، وسأتسوّر الحائط وأتدلى ثم أفتح لكما فتدخلان وأنا عنده

***

ودخلنا ، فاذا رجل كالمريض من غير مرض ، خوّارٌ مسلوبُ القوّة ، انزعج قلبه إلى الموت وما به جرأة ، وإلى الحياة وما به قوّة ؛ وصغّر اليه نفسه أنها أصبحت في معاملة الناس كالدرهم الزائف لا يقبله أحد ، وثار عليه داء الحزن فأضناه وتركه روحا تتقعقع في جلدها ، فهي تهمّ في لحظة أن تثب وتندلق

وسلّم الشيخُ وأقبل بوجهه على الرجل ، ثم قال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »

فقطع عليه الرجل وقال كالمختنق : أيها الشيخ ، قد صبرنا حتى جاء مالا صبر عليه ؛ وقد خلونا من معاني الكلام كله ، فما نقدر عليها إلا لفظة واحدة تملك معناها ، هي أن ننتهي !

ومدّ الشيخُ عينه فرأى كوّةً مسدودة في الجدار ، فقال لي : افتحْ هذه ودَع الهواء يتكلم معنا كلامه . فقمت اليها فعالجتها حتى فتحتها ، ونفذ منها روح الدنيا ، وقال الشيخ للرجل : أصغِ إليّ ، فاذا أنا فرغت من الكلام فشأنك بنفسك : أعلمت أن رجلا من المسلمين قد مرض ، فأعضل مرضه فأثبته على سريره ثلاثين سنة لا يتحرّك ، وطوى فيه الرجلَ الذي كان حياً ونشر منه الرجل الذي سيكون ميتاً ، فبقي لا حياً ولا ميتاً ثلاثين سنة . . . . ؟

قال الرجل : وفي الدنيا من يعيش على هذه الحال ثلاثين سنة ؟

قال الشيخ : صحح الكلام واسألْ : أيصبر على هذه الحال ثلاثين سنةً ولا يقول : (جاء مالا صبر عليه) ! وأيُّ شيء لا صبر عليه عند الرجل المؤمن الذي يعلم أن البلاءَ مالٌ غير أنه لا يوضع في الكيس بل في الجسم ؟

أفتدري مَن كان الصابرَ ثلاثين سنةً على بلاء الحياة والموت مجتمعَين في عظامٍ مُمَدَّدةٍ على سريرها ؟ إنه إمامُنا (عمرانُ ابنُ حُصَين الخزاعيّ) [1] الذي أرسله عمرُ بن الخطاب يُفقّه أهل البصرة ، وتولّى قضاءها وكان الحسن البصريُّ يحلف بالله ماقدِمها خيرٌ لهم من عمران بن حُصين . ولقد دخلتُ عليه أنا وأخوه (العلاء) فرأيناه مُثبَّتاً على سرير الجريد كأنما شُدَّ بالحبال وما شُدّ إلا بانتهاك عصبِه وذوبانِ لحمِه ووَهنِ عظامِه ؛ فبكى أخوه ، فقال : لِمَ تبكي ؟ قال : لأني أراك على هذه الحال العظيمة ! قال لا تبكِ ؛ فان أحبَّه إلى الله تعالى أحبُّه إليّ . ثم قال : إن هذه الأرض تحمل الجبالَ فلا يشعر موضعٌ منها بالجبل القائم عليه ، إذ كان تماسُكُ الأرضِ كلِّها قد جعل لكلِّ موضعٍ منها قوةَ الجميع ، ولولا هذا لَدكَّ الجبلُ موضعه وغار به ؛ وكذلك يحملُ المؤمنُ مثلَ الجبال من البلاء على أعضائه لا ينكسر لها ولا يتهدّم ؛ إذ كانت قوةُ روحه قوّةً في كل موضع ، فالبلاءُ محمولٌ على همّة الروح لا على الجسم ، وهذا معنى الخبر : « إن المؤمن بكلِّ خيرٍ على كلِّ حال ، إن روحه لتنزع من بين جنبيه وهو يحمد اللهَ عزّ وجل ! »

ثم قال : ولكن ذاك هو المؤمن ، فمن آمن بالله فكأنما قال له : « امتحنّي » وكيف تراك إذا كنتَ بطلاً من الأبطال مع قائد الجيش ، أما تفرض عليك شجاعتُك أن تقول للقائد : « امتحنّي وارمِ بي حيث شئت ! » وإذا رمى بك فرجعتَ مُثخَناً بالجراح ونالك البترُ والتشويه — أتُراها أوصافاً لمصائبك ، أم ثناءً على شجاعتك ؟

(١) توفي سنة ٥٣ من الهجرة

ثم قال : إذا لم يكن الايمانُ بالله اطمئناناً فى النفس على زلازلها وكوارثها — لم يكن إيماناً ، بل هو دعوى بالفكر أو باللسان لا يَعْدُوها ، كدعوى الجبان أنه بطل ، حتى إذا فجأه الرَّوْعُ أحدثَ فى ثيابه من الخوف . . . ! ومن ثم كان قَتْلُ المؤمن نفسَه لبلاءٍ أو مرض أو غيرهما كفراً بالله وتكذيباً لايمانه ، وكان عمله هذا صورةً أخرى من طيش الجبان الذى أحدث فى ثيابه !

والايمانُ الصحيحُ هو بشاشةُ الروح ، وإعطاء الله الرِّضى من القلب ، ثقةً بوعده ورجاءً لما عنده ، ومن هذين يكون الاطمئنان . وبالبشاشة والرضى والثقة والرجاء ، يصبح الأيمانُ عقلاً ثانياً مع العقل . فاذا ابْتُلِيَ المؤمن بما يذهب معه الصبرُ ويطيشُ له العقل ، وصار من أمره فى مثل الجنون — بَرَزَ فى هذه الحالة عقله الرُّوحانى وتولى سياسة جسمه حتى يفيق العقل الأول . ويجيء الخوف من عذاب الله ونقمته فى الآخرة ، فيغمر به خوف النفس من الفقر أو المرض أو غيرهما ، فيقتتل أقواهما الأضعف ، ويخرج الأعزُّ منهما الأذلَّ

فالاطمئنان بالايمان هو قتـــل الخوف الدُّنيوىّ بالتسليم والرِّضى ، أو تحويله عن معناه بجعل البلاء ثواباً وحسنات ، أو تجريده من أوهامه باعتبار الحياة سائرةً بكل مافيها إلى الموت ، وهو بهذا عقلٌ روحانىٌّ له شأنٌ عظيم فى تصريف الدنيا ، يترك النفس راضية مَرْضِيّة ، تقول لمصائبها وهى مطمئنة : نعم ، وتقول لشهواتها وهى مطمئنة : لا

وما الانسان فى هذا الكون ، وماخيره وشرُّه ، وماسخطه ورضاه ؟ إنْ كلُّ ذلك إلا كما ترى قبضةً من التراب تتكبّر وقد نسيت أنه سيأتى من يكنسها . . . . !

* * *

قال الشيخ : وانظر ، أما تُبْتَلى الشجرةُ الخضراءُ فى بعض أوقاتها بمثل ما يُبْتَلى به الانسان ، غير أن لها عقلاً روحانياً مستقرًّا فى داخلها يُمسك الحياةَ عليها ويَترَبّص حالا غير الحال ؟ ومهما يكن من أمر ظاهرها وبلائه فالسعادة كلها فى داخلها ، ولها دائماً ربيع على قدرها حتى فى قُرِّ الشتاء

فالعقلُ الروحانىّ الآتى من الايمان ، لا عمل له إلا أن ينشئ للنفس غريزة متصرِّفةً فى كل غرائزها ، تُكَمِّل شيئاً وتنقص من شئ ، وتُوَجِّه إلى ناحية وتصرفُ عن ناحية ؛ وبهذه الغريزة تسمو الروح فتكون أكبر من مصائبها وأكبر من لذّاتها جميعاً

وتلك الغريزة هى نفسها معنى الرضى بالقدَر خيرِه وشرِّه ، وهى تأتى بالتأويل لكل هموم الدنيا ، فتضع فى النكبات معانىَ شريفةً تنزع منها شرّها وأذاها للنفس ، وليست المصيبةُ شيئاً لولا تأذِّى النفس بها . وإذا وقع التأويل فى معانى النكبات أصبحت تعمل عملَ الفضائل ، وتغيّرتْ طبيعتها ، فيعود الفقر باباً من الزهد ، والمرضُ نوعاً من الجهاد ، والخيبة طريقاً من الصبر ، والحزن وجهاً من الرجاء ، وهلمّ جرّاً

والنفس وحدها كنزٌ عظيم ، وفيها وحدها الفرح والابتهاج لا فى غيرها ، وما لذّات الدنيا إلا وسائل لأثارة هذا الفرح وهذا الابتهاج ، فان وجدا مع الفقر بطلتْ عزةُ المال وأصبح حجراً من الحجر ، والبلبل يتغرّد بحنجرته الصغيرة مالا تغْنى فيه آلاتُ التَّطْريب كلها . وفى النفس حياةُ ما حوْلها ، فاذا قَويتْ هذه النفس أذلت الدنيا ، وإذا ضعفتْ أذلتها الدنيا !

* * *

قال المسيب : ثم سكت الشيخ قليلاً ، وكنت أرى الرجل كأنما يغتسل بكلامه ، وقد أشرق وجهه وتنضر وانقلب إلى روحه التى كان منصرفاً عنها ، فعادت مصائبه تضغطُ روحاً لينةً كما تضغط اليد على الماء ، وأيقن أن النكبةَ كلها هى أن ينظر الانسان إلى الحياة بعين شهواته فيُنكب أول ما ينكب فى صبره ويقينه

ثم قال الشيخ ، ولقد رأيت بعينيْ رأسى معجزة (العقل الروحانىّ) وكيف يصنع : رأيت عروة بن الزبير(١) وهو شيخ كبير — عند الوليد بن عبد الملك ، وقد وقعت فى رِجله الأَكلة ، فأشاروا عليه بقطعها لا تُفسد جسدَه كلَّه ، فدُعِى له من يقطعها ، فلما جاء قال له نسقيك الخمر حتى لا تجدَ لها ألما . فقال عروة : لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية ! قال : فنسقيك المُرْقد . فقال عروة : ما أُحبّ أن أسلَب عضواً من

(١) توفى سنة ٩٣ للهجرة

أعصابي وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه

ثم دخل رجال أنكرهم عروة ، فقال : ما هولاء ؟ قالوا : يمسكونك ، فان الألم ربما عزب معه الصبر . قال أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسى !

قال الشيخ : فانظر أيها الضعيف الذى يريد قتل نفسه كيف صنع عروة ، وكيف استقبل البلاء ، وكيف صبر ، وكيف احتمل . إنه انصرف بحسه إلى النفس فانبسطت روحه عليه ، وأخذ يكبر ويهلل ليبقى مع روحه وحدها ، وخرج من دنيا ظاهره إلى دنيا باطنه ، وغمرت حواسه وأعصابه بالنور الالهى من معنى التكبير والتهليل ، فقطع القاطع كعبه بالسكين وهو لا يلتفت ، حتى إذا بلغ العظم وضع عليها المنشار ونشرها وعروة فى التكبير والتهليل . ثم جيء بالزيت مغلياً فى مغارف الحديد فحسم به مكان القطع ، فغشى على عروة ساعة ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه ، ولم يسمع منه فى كل هذه الآلام الماحقة أنةٌ ولا آهةٌ ، ولم يقل قبلها ولا بعدها ولا بين ذلك : « جاء ما لا صبر عليه ؟ »

***

قال المسيب : وأرهف بأس الرجل الضعيف وقوى جأشه وانبعثت فيه الروح إلى عمر جديد ، ونشأ له اليقين من عقله الروحانى وعرف أن ما لا يمكن أن يدرك ، يمكن أن يترك

وجاء هذا العقل الروحانى فمرّ بالمنشار على اليأس الذى كان فى نفسه فقطعه ، فما راعنا إلا أن وثب الرجل قائماً يقول : الله أكبر من الدنيا ، الله أكبر من الدنيا !

ثم أكب على يد الشيخ وهو يقول : صدقت ؛ « إنْ كلُّ ذلك إلا كما ترى قبضة من التراب تتكبر ، وقد نسيتْ أنه سيأتى من يكنسها » (١)

***

ماذا يصنع الانسان إذا غلط فى مسئلة من مسائل الدنيا إلا أن يتحرّى الصواب ويجتهد فى الرجوع اليه ويصبر على ما يناله فى ذلك ؟ وماذا يصنع الانسان إذا غلطت فيه مسئلة ... ... ؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

(١) ستتم القول فى الانتحار إن شاء الله فى المقال التالى

عصر الخفاء فى مصر الاسلامية

٤ ـ الحاكم بأمر الله

للأستاذ محمد عبد الله عنان

والآن ماذا نستطيع أن نقرأ فى هذا الثبت الدموى الحافل من خواص الحاكم وصفاته ؟ لقد كانت هذه الجرائم المثيرة بلا ريب عنوان اجتراء مروع على الشر ، وشغف واضح بالسفك واحتقار بين للحياة البشرية ؛ ولكنها لم تكن نزعة دموية فقط ، ولم تكن بالأخص دون غاية . كان الارهاب فى نظر الحاكم وسيلة للحكم ، وكان القتل المنظم دعامة هذا الارهاب الشامل ؛ فاذا زعيم أو رجل من رجال الدولة وصل إلى مدى خطر من السلطان والنفوذ ، فان القتل أنجع وسيلة لسحقه وسحق نفوذه ؛ وإذا بدرت من فريق من الناس بادرة تذمر أو تمرد على أمر من الأوامر أو قانون من القوانين ، فان إزهاق عدد منهم يكفل عودهم إلى السكينة والخشوع . وكانت هذه السياسة الدموية تحيط عرش الحاكم بسياج منيع من الرهبة ، وتخمد الأطماع المتوثبة فى مهدها ، وتنذر الزعماء ورجال الدولة بالخضوع المطلق لهذا الفتى الجرىء . ولقد كان القتل دائماً وسيلة الطغاة الى تأييد سلطانهم ، وكان الحاكم طاغية قوى النفس والشكيمة . وقد كانت الأهواء والفورات المنيفة التى تجيش بها نفس الحاكم تمد هذه السياسة الدموية بروح من الاسراف والقسوة ، ولكنها كانت فى نظره قبل كل شيء وسيلة من وسائل الحكم ، وكان لها بلا ريب أكبر الأثر فى توطيد سلطة الحاكم ، وسحق عناصر الخروج والثورة التى تتربص عادة بأمثاله الطغاة المسرفين

هذا ويفسر لنا بعض المؤرخين المسلمين إسراف الحاكم فى القتل بأنه كان تقرباً منه « لزحل وطالعه المريخ » ، وقد كان الحاكم شغوفاً بالفلك ورصد النجوم كما سنرى (١) ، ولكننا لا نستطيع أن نسيغ هذا الرأى من الوجهة التاريخية ، فليس فى

(١) هذا هو قول قزاوغلى فى مرآة الزمان (النجوم الزاهرة ص ١٧٧)

سيرة الحاكم رغم شـــذوذه ، وتباين معتقداته وشغفه بالخفاء ، ما يدل على أنه كان يأخذ بمثل هذه الرسوم الوثنية المثيرة

— ٦ —

كان شغف الحاكم بالليل من أظهر خواص هــذه المرحلة الأولى من حكمه . كان الحـاكم يعقد مجالسه ليلاً ، ويواصل الركوب كل ليلة ، وينفق شـطراً كبيراً من الليل فى جوب الشوارع والأزقة (سنة ٣٩١ هـ) ، وكانت القاهرة تبـدو فى هذه الفترة بالليل ، كأنها شعلة مضيئة ؛ وتجرى جميع المعاملات بالليل ، وتختلط حياة الجد بحياة اللهو والقصف ، فتسطع الميادين والمنتديات بالوقود والزينات ، وتغص بصنوف اللهو والمرح . فلما خرج الناس فى ذلك عن الحد ، وبالغوا فى اللهو والاسراف والزينة ، منع الحاكم النساء من الخروج ليلاً لكى تخف عوامل الفتنة والغواية ، ثم أمر بمنع الرجال من ارتياد الحوانيت والمقاهى ، وعاد الظلام يخيم على القاهرة بالليل ؛ وشغف الحاكم بالليل وظلماته من غريب أطواره ونزعاته ، حتى لقـد لبث مدى حين يؤثر الجلوس فى الظلام [1] بيد أنه ينم فى نظرنا عن روح فلسفى يزيد فى غموض نفسه

ولم يمض عامان أو ثلاثة حتى عمد الحاكم الى إصدار طائفة من الأوامر والقوانين المدهشة التى لم يسمع بمثلها من قبل فى أى مجتمع اسـلامى . وكانت هذه المراسيم دينية واجتماعية ، وكان مما يزيد فى غرابتها وغموض بواعثها أنها كانت تصدر ثم تمحى بعد قليل وتستبدل بعكسها ، ثم يعاد صـدورها وهكذا . وقد اتخذ المؤرخون المسلمون على كر العصور هــذه المراسيم حجة للحكم على الحاكم وعصره بأقسى الأحكام ، واكتفوا فى تعليلها بنظرية بسيطة ، هى أن الحاكم كان ذهناً مضطرباً لا يصدر عن روية أو حـكمة ، ولم تكن هذه الأوامر والاجراءات الشاذة سوى نزعات مخبول لا يستقيم له منطق أو غاية . ويحسن قبل أن نناقش هذا الرأى أن نستعرض هذه المراسيم أولاً ، وأن نحاول أن نتفهمها ، وأن نستقصى بواعثها على ضوء الظروف التى كان يجوزها المجتمع يومئذ

ونبدأ بالمراسيم الاجتماعية . فى سنة ٣٩٥ هـ ، صـدرت أول طائفة من هذه القوانين المدهشة ، فمنع الناس من أكل الملوخية والترمس والجرجير والتوكلية والدلينس ، وحـُرم ذبح الأبقار السليمة إلا فى أيام الأضحية ، وحرم بيع الفقاع وعمله البتة وحرم صيد السمك الذى لا قشر له وكذلك بيعه ؛ وحرم دخول الحمام بلا مئزر ؛ وحرم على النساء أن يكشفن وجوههن فى الطريق ، أو خلف الجنائز ، وحرم عليهن التزين والتبرج ؛ وشدد الحاكم فى تنفيذ هــذه الأوامر ، وعوقب كثيرون من المخالفين بالجلد والتشهير والأعدام . ثم حـُرم على الناس أن يخرجوا من منازلهم إلى الطرقات بعد الغروب ، وأن يزاولوا البيع والشراء بالليل ، فخلت الطرق من المـارة ، وأقفرت الشوارع والميادين بالليل ، وغدت القاهرة كالمدينة المحصورة ؛ وحرم شرب الخمر من نبيذ وغيره ، وكسرت أوانى الخمور وأريقت فى كل مكان ، وأمر بتتبع الـكلاب وقتلها أينما وجدت ، فطوردت فى كل مكان وأعدمت حتى خلت منها كل الطرق والدور [1] ؛ وفى هذا العام أيضاً حرم على كل من يركب مع المكاريين أن يدخل راكباً من باب القاهرة ، وحرم ذلك على المكاريين أنفسهم ، وحظر على التجار والباعة أن يجلسوا على باب الزهومة (من أبواب القصر) ، وألا يمشى أحد بحذاء القصر ، ثم أعفى المكارية بعد ذلك من الأمر وصدر لهم أمان خاص [2]

وهكذا اضطربت أوضاع الحياة الاجتماعية المصرية ، واستمر تطبيق القوانين والأوامر الجديدة على أشده . وفى سنة ٣٩٨ هـ صدرت عدة مراسيم جديدة ؛ فمنع الناس من التظاهر بالغناء ، ومن ركوب البحر للتفرج ، وذلك لمناسبة نقص النيل فى هذا العام ؛ وشدد فى منع بيع الخمور ؛ ثم صدر مرسوم بمنع الناس كافة من الخروج قبل الفجر وبعد العشاء ، فزادت المعاملات اضطراباً واشتد الأمر على الكافة ، وسرى اليهم الخوف والجزع ، واشتد الغلاء ، وتفاقمت الحال بظهور الوباء ، وعصف المرض والموت ، وعز القوت والدواء . وفى سـنة أربعمائة صدرت أوامر جديدة بالتشـديد فى حظر الخمور وبيعها ؛ ومنع ركوب المراكب فى الخليج ، وسدت أبواب القاهرة التى تلى الخليج وأبواب الدور والطاقات المطلة عليـه [3] وعوقب الكثيرون من أجل إحراز

(١) ابن قزأوغلى فى مرآة الزمان (راجع النجوم الزاهرة ٤ ص١٧٦)

(١) ابن خلـكان ج ٢ ص ١٦٦ — المقريزى ج ٤ ص ٦٩ و ٧٠

(٢) المسبحى فى حوادث سنة ٣٩٥ ونقله المقريزى — ج ٣ ص ٤٤

(٣) المقريزى عن المسبحى — ج ٣ ص ٣٨

الفقاع والملوخية والسمك الذى لا قشر له ومن أجل بيع النبيذ وإحرازه ، وكانت العقوبة تصل فى أحيان كثيرة الى الاعدام .

وفى سنة اثنتين وأربعمائة منع النســاء من زيارة القبور ، فلم ير فى الأعياد بالمقابر امرأة واحــدة ، وحظر الاجتماع على شاطئ النيل للتفرج ؛ وحرم لعب الشطرنج وعوقب المخالفون بالجلد ؛ وحظر بيع الزبيب واستيراده ، وأحرق جميع ما كان موجوداً منه ، وحظر بيع العنب إلا أربعة أرطال فما دونها حتى لا يستعمل فى صنع النبيــذ ، وحظر عصره وأتلف كثير منه وأغرق فى النيل أو ديس فى الطرقات ، وسير المأمورون الى الجيزة ، وكانت يومئذ عامرة بحدائق الكروم فأتلفوا كرومها ، وصودر ما كان فى معاصرها ومخازنها من جرار العسل ، وكسرت وأريقت فى النيل ، وحدث مثل ذلك فى سائر الجهات [1]

وفى سنة اربع وأربعمائة صدر مرسوم بتحريم صناعة التنجيم والــكلام فيها ، وأن ينفى المنجمون من سائر المملكة ، فاستغاث المنجمون بالقــاضى الأكبر مالك بن سعيد الفــارقى ، فعقد لهم التوبة من هذه الصناعة ، وأعفوا من قرار النفى ؛ وحــدث مثل ذلك للمغنين والمطربين ، فهجروا الغناء وأعفوا من المطاردة ؛ وشدد فى قتل الكلاب مرة أخرى . وفى شعبان من هذه السنة ذهب الحاكم فى معاملة النساء إلى ذروة القسوة والشدة ، فأصدر مرسومه الشهير بمنعهن من مغادرة دورهن والخروج إلى الطرقات بالليل والنهار ، ومنعهن من دخول الحمامات العــامة ، ومنع الأساكفة من عمل خفافهن ، فاختفى النساء من المجتمع المصرى ، وساده الانقباض والوحشة ، وأغلقت المتاجر التى تبيع السلع النسوية ، وســاد الذعر بين النساء ، ولزمن دورهن فى روعة وخشوع ، وعوقب كثير من المخالفات بالموت ؛ واشتد الأمر بنساء الكافة اللائى ليس لهن من يقوم بأمرهن واستغثن بأولى الأمر ، فأمر الباعة أن يحملوا السلع والأطعمة وكل ما يباع فى الأسواق إلى الدروب ، ويبيعوه للنساء فى منازلهن ، وأن يحمل الباعة أداة كالمغرفة لها ساعد طويل يمد الى المرأة وهى من وراء الباب وفيه ماتشتريه ، فتتناوله وتضع مكانه الثمن ، ولا يسمح لها مطلقاً أن تبدو من وراء الباب [2] وعانى النساء هذه الشدة زهاء سبعة أعوام حتى وفاة الحاكم بأمرالله ، وكان حادثاً منقطع النظير . ولم يحدث قط فى أى مجتمع إسلامى ، بل لم يحدث فى أى عصر من عصور التاريخ أن عانى النساء مثل هذه المحنة القاسية ، وسلبن الحرية على هذا النحو الشامل

وكان مما يزيد فى صرامة القوانين الاستثنائية ، الشــدة فى تنفيذها ، وروعة العقوبات التى سنت لمخالفيها ؛ وكان السهر على تطبيقها من أهم واجبات مدبر الدولة أو قائد القواد ؛ فنجد مثلاً فى السجل الصادر بتعيين « غبن » قائداً للقواد ومدبراً للشرطة والحسبة ، (سنة ٤٠٢ هـ) تنويهاً خاصاً بمراعاة تحريم النبيذ وغيره من الخمور وتتبع ذلك والتشديد فيه ، وفى تحريم الفقاع وبيعه ، وتحريم أكل الملوخيا والسمك الذى لا قشر له ، والمنع من الفرجة والمــلاهى كلها ، ومنع النساء من حضور الجنائز ، ومنع بيع الزبيب والعنب والعسل الخ [1] ، وكانت العقوبات تختلف بين التشهير [2] والجلد ، وتصل فى أحيان كثيرة إلى الاعدام

هــذه خلاصة وافية لما أصدر الحاكم أو أصدر فى عهده من المراسيم والأوامر الاجتماعية الاستثنائية ، ومعظمها يحمل طابع القسوة والشذوذ ؛ ولــكن سنرى أنها لم تــكن دون غاية ، ولم تصدر كما يبدو لأول وهلة ، عن نزعة مخبول أو هائم ، وأن كثيراً منها يحمل بالمكس طابع الطرافة والحــكمة ، ويرمى إلى غايات بعيدة قد فطن اليها هذا الذهن الجرىء ، واتخذ منها مُثُلا

— ٧ —

نعرض بعد ذلك إلى طائفة أخرى من مراسيم الحاكم بأمر الله هى المراسيم الدينية ، وقد كانت كالمراسيم الاجتماعية تحمل فى كثير من الأحيان طابع الشدة والتناقض

وبدأ الحاكم بهذه المراسيم الدينية لأول عهده بالحــكم أيضاً . ففى سنة ٣٩٥ هـ ، أصــدر أمره للنصارى واليهود بلبس الغيار وشد الزنار ؛ وفى سنة ٩٩ أمر بهدم بعض كنائس القاهرة ونهب ما فيها ، ونفذت الأوامر بهــدم كنيسة قمامة (القبر المقدس) ببيت المقدس ونهبها ، ولــكن أكابر الأحبار والنصارى سعوا على ما يظهر حتى عدل عن تنفيــذ الهدم ؛ وفى العام التالى صدر

(١) ابن خلــكان ج ٢ ص ١٦٦ — المقريزى ج ٤ ص ٧٢

(٢) ابن خلــكان — ج ٢ ص ١٦٧ والمقريزى ج ٣ ص ٧٣ وابن الأثير ج ٩ ص ١٠٩

(١) المقريزى ج ٤ ص ٨٨

(٢) التشهير هو أن يطاف بالمذنب على حمار أو جمل وتعلق عليه كتابة بمضمون ذنبه ، وقد يكون عقوبة أصلية ؛ وقد يعقبه بعد ذلك جلد أو إعدام

مرسوم جديد بالتشديد على اليهود والنصارى فى لبس الغيار وتقلد الزنار . وفى سنة ٤٠٢ صدر مرسوم شامل ضد النصارى واليهود ، يقضى بأن يلبسوا العمائم السود ، وأن يعلق النصارى فى أعناقهم صلباناً ظاهرة من الخشب طول الواحد منها ذراع فى ذراع ووزنه خمسة أرطال ، وأن يعلق اليهود فى أعناقهم قرامى من الخشب زنتها خمسة أرطال أيضاً ، وحرم على الفريقين معاً ركوب الخيل ، وأن يكون ركوبهم الحمير والبغال بسرج من الخشب وسيور سود عاطلة من كل حلية ، وألا يستخدموا مسلماً أو يقتنوا عبداً مسلماً أو جارية مسلمة ، أو يركبوا حماراً لمكارى مسلم ، أو سفينة لملاح مسلم ، وأن يحمل النصارى الصلبان ، واليهود الأجراس فى أعناقهم عند دخول الحمام تميزاً لهم عن المسلمين ؛ ثم أفردت لهم بعد ذلك حمامات خاصة ، وعلقت الصلبان على حمامات النصارى ، وقرامى الخشب على حمامات اليهود ؛ وطبقت هذه الأوامر والقوانين بمنتهى الصرامة فاشتد الأمر على اليهود والنصارى وساد بينهم الروع والرهبة ، وأسلم كثير منهم تجنباً لهذه المطاردة ونفى الكثير منهم خارج الديار المصرية ، وهدم كثير من الكنائس والأديار والبيع ونهبت ، وصدر بعد ذلك أمر جديد بهدم كنيسة قمامة (القبر المقدس) . وعانى اليهود والنصارى هذه المحنة أعواماً ، وكانت من أشد ماعانوا فى ظل الدولة الاسلامية بمصر . ثم خفت وطأة المطاردة عنهم ، وأطلقوا من بعض قيودهم ، وسمح لهم بتجديد مادرس من الكنائس والبيع ، وارتد كثير ممن أسلموا منهم إلى دينه الأول ، بيد أنهم لبثوا يعانون آثار المحنة حتى وفاة الحاكم بأمر الله (١)

ولقد كانت هذه المطاردة الصارمة للذميين من أهم ظواهر عصر الحاكم بأمر الله ؛ وكانت بلاريب خطة مقررة ، ولم تحمل فى مجموعها طابع التناقض ، ونستطيع أن نقول إنها كانت انقلاباً جوهرياً فى السياسة الفاطمية إزاء اليهود والنصارى . ذلك أن الدولة الفاطمية ، كانت منذ قيامها بمصر تؤثر سياسة التسامح الدينى ، وتذهب فى هذا التسامح إلى أبعد مدى ، فتصطفى اليهود والنصارى ، وتوليهم مناصب الثقة والنفوذ ، وكان بين وزرائها كثير من اليهود أو النصارى مثل الوزير يعقوب بن كلس وزير المعز ، ثم ولده العزيز ، فقد كان يهودياً ثم أسلم ، وكان أعظم وزراء الدولة الفاطمية ؛ وعيسى بن نسطورس النصرانى ، ومنشا اليهودى ، وزيرا العزيز بالله ؛ وتولى الحكم ثلاثة من الوزراء النصارى فى الفترة الأولى من عصر الحاكم ذاته ، هم الرئيس فهد بن ابراهيم ، وابن عبدون ، وزرعة بن عيسى بن نسطورس . وكان النصارى واليهود يتمتعون قبل عصر الحاكم بكثير من الحرية والتسامح ، ويؤذن لهم ببناء الكنائس والأديار والبيع . ولم يشذ الحاكم عن هذه السياسة لأول عهده ، وكان ذلك راجعاً إلى نفوذ الوزراء النصارى ، وربما إلى نفوذ أمه النصرانية وأخته ست الملك ، وقد كانت تؤثر سياسة أبيها العزيز فى الرفق بالذميين ؛ ولكن الحاكم انقلب فجأة إلى سياسة المطاردة الدينية ، وأبدى فى تطبيقها منتهى الغلو والتطرف ؛ بيد أنا سنرى أن هذه السياسة ترجع أيضاً إلى بواعث لها خطرها وقيمتها

للبحث بقية

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) راجع ابن خلكان . ج ٢ ص ١٦٦ — والمقريزى ج ٤ ص ٧١ و ٧٢ و ٧٣ — والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٧ و ١٧٨

كلـــــات ...

للأستاذ محمد روحي فيصل

الشعراء ثلاثة : شاعر موهوب ينفث من صدره معنى الفاظه ، ويستخرج من لغته الفاظ معناه ! ينحدر الى طبعه عند البيان ، وينطوى على نفسه لينشرها ويجلو المبهم منها ، ويدع العرض العابث ، ويفرز المتداخل المتشابك ، ثم يسجل الخلجة الجميلة أو الخاطر الاصيل وكأنما يلد من لحمه ودمه جنيناً حياً ، يكفله ويحبه ويحرص على ان يكون قوياً نشيطاً صحيحاً ، ويأخذه بألوان من التهذيب والرعاية والنضارة حتى يثمر ويؤاتى أكله . ولئن نصب الشاعر فى الولادة ، وعانى ألم البيان ، فلقد يستمتع بمرأى الوليد النضر الجميل يسعى وينطق ، ثم يكون له أثره القوى فى الوجود ، ونصيبه الموفور من الحياة ، وفضله العميم على الناس .. !!

وشاعر ميت يتصيد اللفظة الشاردة والكلمة المتأبدة والحرف الناشز من بطون المعاجم ، وانتاج الزملاء ، وقديم الشعراء ، وكأنما يتصيد الفريسة الدسمة الفارهة السمينة ! ويلتزم صنعة البديع وحسن التشبيه ودقة المقابلة ورقة الجناس ، وكأنما يلتزم طرائق البيان الخالدة ، ويعلن عن ثقافته البالغة وذوقه الصحيح !

وشاعر مفلس لو اجتمع للرثاء ، واعتزم التعزية والبكاء ، لتصفح المراثى الباكية واحدة واحدة ، ومعنى معنى ، وبيتاً بيتاً ، ثم اختلس هذا ، وشوه هذا ، وحرف ووجه وزاد .. لقد يقتنى المسكين روائع غيره ، ويختبىء وراء نظمه ، وينزل عن شخصيته ، ويسف بكرامته — حباً للذكر والأحدوثة !

قال التاريخ : « عبثاً ينتج شاعر الصنعة وشاعر السرقة »

***

الألفاظ ! الألفاظ !

اداة المبين ، ووكر المعنى ، وسر الفن ! والشاعر العبقرى من عرف كيف يزاوج بينها ثم احسن التأليف ، وابدع الموسيقى ، ونشر الجرس ! فانما الشعر لو تدبرت نغم علوى لطيف يهز الأذن، ويشيع فى القلب ، ويحيا فى النفس ، ويخلد فى الذاكرة ، ويرن فى الخيال . كان اللفظ وما يزال الساحر العجيب الذى يلعب بالأهواء والأعصاب كما يلعب المرتاض بكرة القدم ، ولعلك تذكر فيما تذكر درامة شكسبير فى يوليوس قيصر ، وقوة البيان عند انطوان وبروتس ، وسلطان اللفظ على العامة والرومانيين

***

لشد ما يشبه الفنان الأنسان الأول أو الطفل الناشىء ! ينظر الى الدنيا بعين رغيبة ، ويشعر بنفس ظمآنة ، ويفكر بعقل طُلَعَة . ولكنه يمتاز منهما — انصح له الامتياز — بأنه يجمع الأسباب ، وينظم المنثور ، ويلمح التناسب ، ويتذوق الجمال ! ومهمته الكبرى انما هى على التحقيق الأنحدار الى النفس ينفض غبارها ، ويكشف اتساقها ، وينير زواياها ، ثم يخرجها لغة تهز القلب وتفيد العقل

كذلك العالم فى استقرائه يدرك المجهول ، ويصل العلة بالمعلول ، ثم يضع القاعدة ويعمم القانون . فلو خطا أحد أمامه خطوة أو خطوتين لقدر القوة ، وراز الشدة ، وقاس المسافة ، ووزن الكتلة ، وانتهى من هذا كله إلى تقييد الحركة واعلان العمل

العالم والفنان كلاهما ينظر إلى أبعد من أنفه ، ويسبر غور الأشياء . لقد يشتركان فى الذات ، ويتداخلان فى الموضوع ، ثم يختلفان بعد هذا فى الآلة والطريق . . . ! !

***

أرأيت إلى الحياة فى مضطربها كيف تبدلها اللمحة ، وتنقلها الملاوة ، وتصبغها العاطفة ، وتخضعها الظروف ؟ ذلك ما يبعث على خلودها وامتدادها وجدتها وجمالها ، وذلك ما وكل إلى الفن بتصويره . فالحقيقة الفنية تتصل بالمزاج والزمن والموقف ، وهذه كلها أبداً فى تطور مستمر عجيب ، أما الحقيقة العلمية فثابتة على الدهر والأشخاص ، ولئن طرأ عليها تحوير أو هدم فانما يكون لتقريبها من الصحة والدقة والشمول

الدنيا واحدة عند العالم من حيث الجوهر والنظام . ولكنها دنى كثيرة عند الفنان من حيث الشكل والاحساس

***

ما عجبت لأحد من أبناء الفن عجبى لهؤلاء الأدباء الذين يزهون بأنفسهم فلا يكتبون إلا لها ، ويعنون بعواطفهم فلا يتحدثون إلا عنها ، وهم لو سئلوا ما بال الجمهور يقرأ آثاركم وينشد

أشعاركم ؟ لقالوا : إنه متطفل يحب أن يسمو بقدره إلى منازل الكتاب والشعراء ، فيستشعر الذي يستشعرون ، ويطوف حيث يطوفون . فالجمهور — مهما دقت نظرته وسمت أهواؤه — طفل لدنٌ ما برح في كل العصور والأقوام يلهو ويعبث !!

أدب هؤلاء الأثرين يغشاه في أغلب الأحيان غموض ، وتطل عليه فوضى ، ثم لا يصح معه مقياس من المقاييس الأدبية المعروفة ، وكيف تستطيع أن تقدره وتحكم له أو عليه مادمت لا تفهمه ولا تتذوقه ؟ إنما ينبغي للكتاب والشعراء أن يقطفوا من النفس والحياة ما يشترك في فهمه الناس جميعاً ، أو الكثرة الغالبة من الناس ، أو الطبقة النيرة منهم . ولئن صادف ألاَّ يكون هذا ولا هذا فهو إلى السخف والهذيان أدنى وأقرب . . .

***

غاية الفن أن يجلو النفوس ويهز الشعور ، النفوسَ بأسرها والشعور على تلونه ، شريطة أن تكون نفسنا وشعورنا في البداءة !

***

الكلمة الواحدة تدخل في رأسين اثنين ، فتحمل إلى هذا النشوة والسلام ، وتحمل إلى ذاك الفتنة والآلام !

***

كل امرىء وإن نأى متصل بالمجتمع ، مدني بالطبع . وهذه الوشائج القوية المبهمة التي تربطه بالانسانية تؤثر فيه ويؤثر فيها ، قد لا يلمحها أوساط الناس وطغمتهم ، وإنما تلمحها طائفة رفيعة خصها الله بسلامة الفكر ، وحسن البصر ، وقوة التصور ، وهبة التصوير

***

قد يجيش صدر الأديب بالمعاني حتى ما يستطيع أن يحتملها ، وقد ينضب حتى كأنه بلقع قفر . فحياته أبداً في نقلة وتناقض واضطراب ، ما أشبهه بأسفنجة رخوة لدنة تمتلىء حيناً وتفرغ حيناً ! فكل ما خرج على لسانه قد تمثله من قبل ووعاه خياله ، قاعدته في البيان : « خذْ وأعط »

***

قال سنت بوف : نصيحتي إلى أدباء الشباب ألاَّ يقلدوا من يعجبون بهم من أعلام البيان ورجال الفن ، فذلك يميت نفوسهم ويشوه شخصيتهم ، وإنما يتذوقون آثارهم فحسب ، ثم يصورون حياتهم الخاصة كما صوروها في صدق وغير تكلف ، وليكن لهم مثل أعلى يوجه انتاجهم ويصحح مقاييسهم ويهذب أهواءهم ، ولا غضاضة عليهم – وهم ينشئون في لغتهم الصحيحة متأثرين بالمحيط والبيئة يستمدون منهما الوحي والقوة – أن يتساءلوا من حين لآخر ، وجباههم مرفوعة إلى السماء ، وعيونهم شاخصة إلى الأموات الأحياء : « تُرى ماذا يقال فينا ! »

***

تستهل الحياة الأدبية عملها في الفرد والأمة بالشعر ، وتدرج على الشعور ، ثم تستشرف للتفكير ، وتنتهي إلى النثر . ويكاد هذا يكون قانوناً لا يقبل استثناء ، فلقد تذكو العاطفة فينطلق الكلام شعراً منظوماً ، ويخبو الوجدان فينمو العقل ويستفيض النثر ! وهنا السر كل السر في مناعة الشعر الصادق الرفيع ، ونُدرة النابغين فيه من المعاصرين

***

القارىء — هذه قصيدة قدسية قد فرغتُ من تلاوتها منذ حين . ما أصدقها وما أنور معانيها ! إنها الحقيقة بأطارها وإشراقها ! لا ، إنها قطعة من حياتي ! لا لا ، إنها مصدر حياتي ! ويح نفسي كم أحب أن أعلن هذا للشاعر . . .

المرأة — حذار حين تلقاه ألاَّ تهمس في مسمعيه ما تريد ، وحذار أن يجمد خاطرك ويحتبس لسانك وتنكمش طبيعتك ! إنما الشاعر خطيب لسِن قد وقف إلى الراديو يرسل معانيه الطلقة كأشعة رفافة تنطلق في الفضاء وتتوزع على الأرض ، ما يرى جمهوراً صاغياً مشجعاً ولا خيالاً لجمهور ، ولكن حياة صامتة هادئة تأخذ السبل وتملأ العيون ! أرأيتَ إلى الحياة الصامتة الهادئة كيف تكون جافة ملولة إذا لم يتخللها الفينة بعد الفينة صراخ النقد أو هتاف الاستحسان ! لقد يطل من كوة الفضاء صدى جميل تبرق له أسارير الشاعر ، وينطلق بيانه ، وتخصب عبقريته ، ويسمو انتاجه ، ثم يعلم أن معانيه التي أرسلها شعاعاً قد لامست حياً يسمى ، وحسب الفنان هذا من غاية وراحة ! !

القارىء — أنا متصل يا عزيزتي اتصالاً وثيقاً بكبار الكتاب وسادة الفن ، أما « ع » في الشعراء فقد تلابسينه اليوم واليومين

وتجلسين اليه طويلاً ، وتتحدثين اليه ما شئت أن تتحدثي ، فما يبرح في حضرتك جامداً بكيء اللسان ، سخيفاً إذا ارتأى ، مضحكاً إذا أشار ، ينشر عليك اضطراباً من رأيه ودمامة من وجهه ووساخة من ملبسه ! ولكن ما يكاد يرجع إلى نفسه ويغلق أبواب غرفته ، ويستوحي شيطان شعره حتى ينقلب مبيناً محدثاً حلواً رائعاً في رأى البصر ورأى البصيرة . لشدّ ما أسكرتني أشعاره وهزتني موسيقاه ! فنصيحتي إليك ألا تقربي عظماء الرجال ، أو تدخلي بيوتهم وتعيشي في ظلهم ، ولكن اعشقيهم إن شئت عن بُعد ، وكوني معهم على غير اتصال !

المرأة — دع «عيناً» هذا فما أحب أن نتحدث فيمن غبرَ من الأحياء . إنما الأموات خيوط عريضة قوية تنسج مادة الماضي وتقوّم أحداث التاريخ ، وتؤلف وحدة الأمة ! هذا ابن أبي ربيعة الكبير كان يدلف إلى الكواعب الحسان في لحمة الليل ، وغفوة الناس ، وغفلة الحراس ، فيقضي لبانته منهن كما شاء الهوى والشباب ، ثم يلاقي ناقته في العراء ، ويغيب في مطاوى الزمن ! ومثله في اجتلاء الجمال جوت وبودلير ولامرتين يسبحون جاهدين في بحر الوجود ، لا يستشرفون إلى شاطىء من شطآنه ، ولا تريحهم موجة من أمواجه . . .

القارئ — هم يسبحون ؟ لا ، إنهم أوعية يملؤها الزمان ويختبيء فيها

المرأة — ثق أن الفنان يعطي أكثر مما يأخذ ، ويعمل أكثر مما يجب ، ويهب أكثر مما يدع

القارئ — ماذا تعنين ؟

المرأة — أعني أنك مخطىء حين تجل الفن وتجعله تاجاً جميلاً على رأس الانسانية . فالفنان كالممثل يصور معالم الحقيقة ، ومواضعات الناس ، واضطراب الحياة فهو كما ترى « ناقل » لا « مخترع » . هو نفس في النفوس ، ورجل كالرجال

القارئ — هل دريت ان حفيد الشاعر المشهور « ج » قدمات على أسوإ ما يموت البؤساء من الفقر والوحدة والنكران ؟ انا أرى الا يعقب الفنان ذرية تعيش من بعده ، وتسعى خلف نعشه ، وانما يقوم بعمله الفني أعزب وحيدا في ذاكرة التاريخ

المرأة — أنا لست أرى هذا ، فالفنان حلقة في سلسلة الانسانية ما ينبغي أن يكون آخرها وقاطعها ، فلينحدر منه الناس كما انحدر هو من الناس ، فأما البؤس فكما يصيب الفنان قد يصيب غيره . . !!

بيروت

محمد روحي فيصل

المصادر الأغريقية
للفلسفة الاسلامية
للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

لا يستطيع باحث أن يفهم الفلسفة الأسـلامية فهماً صحيحاً دون أن يدرسها على ضوء الفـكر الأغريقى ومنتجاته . ولا نبالغ مطلقاً إذا قلنا إنه تعذر علينا أحياناً فهم مسألة لدى (الفارابى) أو (ابن سينا) قبل أن نقرأ مصدرها فى كتب (أرسطو) أو (أفلاطون) . وعلّ أحسن ما كُتب فى تاريخ الفلسفة الاسلامية إلى اليوم كان من عمل رجال قارنوا القديم بالحديث ، وقرّبوا فلاسفة الأسلام من أساتذتهم الأغريق . على العكس من ذلك يكاد يرجع العيب العام لأكثر ما كُتب فى هـذه الناحية إلى أن مؤلفيه نسوا أو تناسوا الصلة بين الفلسفة العربية والفلسفة الأغريقية ؛ فنسبوا إلى أشخاص آراء ونظريات ليست نتيجة بحثهم وتفكيرهم المستقل ، ومن التجنى على الحقيقة والتاريخ أن يعزى إلى عالم أو فيلسوف ما لم يأت به ابتداء ، ومالم يبتكره ابتكاراً . ومنشأ هذا الاسناد الباطل جهل بالتاريخ وإغفال للعلاقات الثابتة بين المراحل المختلفة للتفكير الانسانى . فرب فـكرة بدت ... دة مبتكرة فى حين أن الأقدمين اهتـدوا اليها من قبل وأبرزوها فى صورتها الحاضرة ، أو فى صورة أخرى تبعد عن هذه بعض البعد . ومن الغريب أن هناك طائفة من المؤرخين تنزع إلى اعتبار أبطالهم ومن يكتبون عنهم مصدر كل جديد ؛ فهم ينسبون اليهم شخصيا كل ما جاء فى كتبهم أو رُوى عنهم . فى هذا ، بلاشك ، اعتداد كبير بمن يُترجمون لهم ، ومن يدرسون حياتهم ؛ غير أن النزاهة والتحقيق العلمى يأبيانه . قد يبدو طريفاً أن يقال إن نظرية كذا من ابتكار فلان وحده ؛ ولـكن أليس أطرف من هذا وأعمق بحثاً أن يبين المؤلفون المقدمات التاريخية التى مهدت لهذه النظرية ؟ قضى الناس زمناً يرددون فيه أن (ديكارت) مثلاً اخترع نظرية الشك الفلسفى Le doute méthodique اختراعاً دون أن يتأثر فيها برأى سابق ؛ وها هم أولاء اليوم يعلنون أنه سُبق إليها فى صور أخرى مصغرة ، ويبرهنون على ذلك بطرق دقيقة أخاذة (١)

إزاء هذه الظروف كلها نحاول فى هذه الـكلمة أن نلقى نظرة عامة على المصادر الأغريقية التى كانت ذات أثر بين فى تـكوين الفلسفة الاسلامية ، وفى تعرف هـذه المصادر ما يعيننا على أن نحدد بالدقة ما جاء به العرب ، وما سبقهم اليه الأقدمون

عرف المسلمون الفلاسفة السابقين لسقراط Antésocratiques ، ونصف السقراطيين Demi - socratiques ، والسفسطائية Sophistes واللاأدرية Sceptiques ، والرواقيين Stoïciens والأبيقوريين Epicuriens . (٢) فنظرية « الجوهر الفرد » التى قال بها (ديموقريط) و (أبيقور) تتصل إلى حد ما بتلك النظرية التى وردت على ألسنة علماء التوحيد المسلمين (٣) . ومذهب الرواقيين المادى أثر تأثيراً غير قابل للأنـكار فى جماعة المعتزلة ؛ ونخص بالذكر منهم (النظّام) الذى اعتنق نظريات ذات أصل رواقى واضح ، وإن من يقرأ آراءه فى « الـكمون » لا يشك مطلقاً فى أنه تأثر فيها بما جاء به الرواقيون من قبل (٤) . وقد أخذ علماء الـكلام بوجه عام عن اللاأدرية الأغريقيين كثيراً من أفـكارهم ، وخاصة ما اتصل منها بنقد (أرســطو) ونظرياته (٥) . ونرى فى كتب التراجم العربية ملخصات قصيرة عن حياة (تاليس) و (فيثاغورس) و (أبنخزاجور) و (أمبيدوقل) ، وفى كتاب الملل والنحل (للشهرســتانى) أحسن أنموذج لهذه الملخصات (٦) . بيد أن هذه المعلومات فى جملتها ناقصة وغير صحيحة أحياناً ؛ ولا يبـدو على مفكرى الاسلام أنهم كوّنوا رأياً ناضجاً عن هذه المذاهب الفلسفية المختلفة . (فالشهرستانى) نفسه يخلط مذهب (فيثاغورس) بمذهب (أفلاطن) ، ويعزو إلى أصحاب الرواق بعض نظريات

(١) Voir Blanchet (L.), Les antécedents historiques du : « je pense, donc je suis, » Paris; 1920.

(٢) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٢٤٥

(٣) Madkour, La place d' al Fârâbî, p p. 50 et suiv.

(٤) Horovitz Ueber den Einfluss des Stoizimus auf die Entwicklung der Philosophie bei den Arabern (Z. D. M. C.), Bd 57, p. 177.

(٥) Madkour, L' organon d' Aristote..., p. 1321217.

(٦) الشهرستانى ، الملل والنحل (طبعة لندن) ج ٢٢ ص ٢٠٢ — ٢٠٤ ، ٢٥١ — ٢٨٢ ، ٢٩١ — ٣٠٥

مدرسة الأسكندرية [1] . وإذا استثنينا (أفلاطون) و (أرسطو) نجد أن المسلمين لم يعرفوا فلاسفة الأغريق إلا عن طريق غير مباشر ، وفى ثنايا كتب (بلوتارك) و (جالينوس) و(بورفيد) التاريخية [2]

لم يترجم العرب حقيقة من كتب الأغريق الفلسفية إلا مؤلفات (أفلاطون) و (أرسطو) وشرّاح الأخير وتلاميذه . فأما (أفلاطون) فقد تُرجمت محاوراته dialogues الهامة ، وعلى رأسها : الجمهورية la République ، والنواميس les Lois ، وطيماوس le Timée ، والسوفيسط le Sophiste ، وبوليطيق le Politique ، وفادن le Phédon ، ودفاع سقراط l' Apologie de Socrate [3]. فباطل إذن مايقال من أن العالم العربى لم يعرف (أفلاطون) إلا معرفة ناقصة أو خاطئة . والواقع يثبت ، على العكس من ذلك ، أن (مؤسس الأكاديمية) استطاع بفضل نظرياته ومذهبه الروحى أن ينفذ إلى قلوب المتصوفة والمتكلمين والفلاسفة من علماء الاسلام ؛ وقد بينا فى بحث لنا أن (الفارابى) فى محاولته التوفيق بين (أفلاطون) و (أرسطو) اعتمد على أربع محاورات هامة من مؤلفات الأول وهى : فادن ، بوليطيق الجمهورية ، وطيماوس ، كما بينا أنه صدر عنها واستشهد ببعض ما جاء فيها بشكل لايدع مجالاً للشك فى أنه قرأها قراءة روية وتدبر [4] . وفى هذا مايؤيد أن فلاسفة الاسلام درسوا (أفلاطون) دراسة مباشرة وفى كتبه التى نقلت إلى العربية

غير أن هؤلاء الفلاسفة لم يمنوا (بمؤسس الأكاديمية) عنايتهم (بأستاذ الليسيه) ، ولم ينل (أفلاطون) لديهم الحظوة التى نالها تلميذه (أرسطو) . وقد أبان (رينان) من قبل مقدار اعجاب فلاسفة الاسلام بالأخير ، واحلالهم إياه محلا خاصاً وتعلقهم بتعاليمه ، واعتبارهم إياه حجة فى العلوم النظرية [5] وكان طبيعياً أن يبحث العرب عن مؤلفاته ، وأن يترجموها فى دقة

(١) المصدر نفسه ، جـ ٢ ص ٢٦٨ — ٣٠٩ — ٣١١

(٢) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٢٤٦ — القفطى ، تاريخ الحكماء ، ص ١٧ وتوابعها — ابن أبى أصيبعة ، عيون ، جـ ١ ص ١٤٩

(٣) اجتهدت هنا أن أسرد الأسماء التى وضعها العرب أنفسهم

(٤) Madkour, La place d' al Fârâbî, pp. 39—40.

(٥) Renan, Averroès, p. 54. — ef. Munk, Mélanges, p.316

وأمانة . وقد توفر لهم من ذلك عدد غير قليل فى الاقتصاد ، والأخلاق ، والطبيعة ، والمنطق ، وما وراء الطبيعة

كى يُفهم (أرسطو) فهما حقا يجب ألا يدرس بمعزل عن تلاميذه وشراحه ، لهذا اتجه العرب نحو أتباعه الأول وكبار مؤسسى (مدرسة المشائين) ، فأخذوا عنهم ، وترجموا قدرا من كتبهم . وفى مقدمة هؤلاء الأتباع يجدر بنا أن نشير الى تيوفرست Théophraste الذى عُرف بصلاته الشخصية (بأرسطو) ، وببعض مؤلفاته المترجمة الى العربية [1] . وهناك فيلسوف آخر من المشائين نال منزلة ممتازة فى العالم العربى لا يفضلها إلا منزلة (أرسطو) ، ونعنى به الاسكندر الأفروديسى Alexandre d'Aphrodise . وكان (ابن سينا) يسميه « فاضل المتأخرين » ، ويعتد بآرائه اعتداداً كبيراً [2] ويروى لنا (يحيى ابن عدى) أن شروحه على الميتافيزيك Métaphysique والأناليتيك Analytiques (لأرسطو) عرضت فى السوق يوما فتسارع الناس الى اقتنائها ، ودفعوا فيها ثمنا باهظا . اما شرحه على كتاب النفس Traité de l'âme فيعد من أقوم مصادر نظرية العقل théorie de l' intellecst التى لعبت دوراً هاماً فى العالم الاسلامى وفى فلسفة القرون الوسطى عامة [3]
وإذن يمكننا أن نقول إن العرب عرفوا (مدرسة المشائين) ممثلة فى أكبر رجالها ودرسوها مستعينين بأولى المصادر الموثوق بها

بين مفكرى الأغريق رجل آخر معاصر (للأسكندر الأفروديسى) ، وعلم من أعلام الحركة العلمية الأسلامية ، لا فى الطب فقط بل فى الفلسفة وتاريخها ، ألا وهو جالينوس Galien . فاليه يرجع الفضل ، فيما نعتقد ، فى نشر نظريات الرواقيين واللاأدريين بين العرب . وفى شرحه لمؤلف (أفلاطون) المشهور والمسمى طيماوس ما رفع من شأن هذا الكتاب ، وما منحه سمعة عالية فى الفترات الأخيرة من العصور القديمة ، وفى القرون الوسطى لدى السريانيين والعرب واللاتينيين [4]
ولا يفوتنا أن نشير إلى أن مكاتب (استامبول) تحتفظ بترجمة

(١) القفطى ، تاريخ الحكماء ، ص ٣٢ — ٣٣ ، ١٠٦ — ١٠٧

(٢) ابن سينا ، الشفا (مخطوطة المتحف البريطانى رقم ٧٥٠٠) ص ٥٣

(٣) Madkour, La place d' al Fârâbî, p — 131

(٤) حنين بن اسحق ، رسالة الى على بن يحيى ص ٥٠ — القفطى ، تاريخ الحكماء ، ص ١٣١

عربية لهذا الشرح الذى فقد أصله الاغريقى ؛ وقد أطلعنا على بعض أجزائها صديقنا المسيو (كرادس) المدرس بمدرسة الدراسات العالية (بالسربون) . فعسى أن تنشر هذه الترجمة كى نضم خدمة جديدة الى خدمات العربية فى ربطها بين التاريخ القديم والمتوسط ، بل والحديث . و (لجالينوس) أيضا أثر فى العلوم المنطقية ، فقد أدخل فى منطق (أرسطو) عناصر جديدة تقبلها العرب وأخذوا بها .[١] وعلى الجملة (فأرسطو) و (جالينوس) هما الباحثان الأغريقيان اللذان سادا الحركة العلمية الأسلامية واقتسماها فيما بينهما : (أرسطو) فى الفلسفة ، و (جالينوس) فى الطب . على أن الثانى قد عدا فى غير موضع على ميدان الأول ، وأصبح العرب يسمونه بحق : « الطبيب الفيلسوف ! »

لو وقف المسلمون عند (ارسطو) وكتبه وكتب تلاميذه المشائين ، لكانت فلسفتهم مخالفة تمام المخالفة لتلك الفلسفة التى خلفوها . غير أنه لا يصح أن ننسى أن بينهم و بين (رئيس الليسيه) مدرسة الأسكندرية التى أثرت فيهم تأثيراً كبيرا . وأن أثرها ليتناسب مع قربها الزمنى من الثقافة الأسلامية ، واعتناقها آراء أشربت بروح دينية ؛ فنظرياتها تعد أول خطوة صادقة فى سبيل التوفيق بين الفلسفة والدين . هذا الى أن (أرسطو) نفسه وصل الى العرب فى ثنايا كتب علماء الاسكندرية وفلاسفتها ؛ ذلك لأن هؤلاء الفلاسفة شرحوا النظريات الأرسطية فى مؤلفات عديدة ترجم أكثرها الى العربية . ويمكننا أن نذكر بين هؤلاء الشراح پورفير Porphyre وتيمستيوس Thémistius وأمونيوس Ammonius وسمبليسوس Simplicius وداود الأرمنى David l' Arménien وجان فيلوپون Jean Philopon أو يحيى النحوى ، الذين كانوا أكثر اتصالا بالمسلمين من تلاميذ (ارسطو) القريبين منه . ويتكلم (الشهرستانى) عن (پورفير) و(تيمستيوس) فى لغة مملوءة بالاحترام ملاحظا أنهما من أدق الشراح لنظريات (أرسطو) وإن كانا يخلطانها ببعض مبادئ الأفلاطونية الحديثة[٢]. وينقل (الفارابى) بعض آراء (أمونيوس) مستشهدا بها فى مواضع

(١) Madkour, L, organon d. Aristote...,pp. 207—208

(٢) الشهرستانى ، الملل ، جـ ٢ ، ص ٣٤٣ — ٣٤٤ ، ٣٤٤ — ٣٤٥ — Meyerhof, Von Alexandrien, p. 392—93

مختلفة[١] . وقد تمكن (يحيى النحوى) ، بفضل نظريته فى خلق العالم ومناقشته لمذهب (أرسطو) ، أن ينال حظوة علماء التوحيد المسلمين . واذا تتبعنا شروح كتب (أرسطو) فى المنطق التى ترجمت الى العربية ، وجدنا أغلبها من عمل فلاسفة الأسكندرية . وقد ترجمت هذه الشروح فى آن واحد مع المتون التى تتصل بها ، وأصبحت غير قابلة للفصل عنها[٢] . وليس هذا قاصرا على العلوم المنطقية ، بل يتعداها الى الدراسات الأخرى ؛ ففى كل ناحية من نواحى البحث النظرى لجأ العرب الى علماء الأسكندرية ليستعينوا بهم على فهم (أرسطو) ومؤلفاته . وإن نظرة قصيرة الى كتاب تاريخ الحكماء للقفطى ترينا أن هذه المؤلفات وشروحها التى ألفها علماء الأسكندرية كانت تكوّن فى نظر المسلمين كلا مرتبط الأجزاء[٣] . وجملة القول أن مدرسة الأسكندرية ، بحكم موقعها الجغرافى والتاريخى كانت مهيأة لأن تنشر علومها وكتبها فى العالم الأسلامى ؛

من هذه العناصر المختلفة التى أشرنا اليها فى اختصار تألفت فلسفة الاسلام . فاذا كان مذهب (أرسطو) عمادها القوى ، فان (أفلاطون) و (أفلاطن) قد أقرضاها مواد غير قابلة للأنكار ، وقد لوحظ منذ زمن بعيد ما فى الفلسفة الاسلامية من مخلفات الأفلاطونية الحديثة ، إلا أنه لم يحدد بعد بالدقة المصادر التى أخذت عنها هذه المخلفات[٤] . فتارة يبحث عنها فى إنياد (أفلاطن) Ennéades ، وأخرى فى كتاب الربوبية La Théologie apocryphe ، وكتاب الخير المحض Le Livre des Causes اللذان ينسبان خطأ إلى (أرسطو) . فأما (أفلاطن) أو « الشيخ اليونانى » كما يسميه (الشهرستانى) فلم يترجم قط إلى العربية ، وما ينقله (الشهرستانى) من آرائه يرجع إلى ما كتبه فلاسفة الاسكندرية الآخرون[٥] . وأما كتاب الربوبية وكتاب الخير المحض فقد نقلا من غير شك نظرية (أفلاطن) إلى المسلمين ، غير أنه يجب أن نضيف إلى هذين

(١) الفارابى ، الثمرة المرضية (طبعة ليدن) ، ص ٢٤

(٢) القفطى ، تاريخ الحكماء ، ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨

(٣) المصدر نفسه

(٤) Renan. Averr. p. 93.—Munk, Mélanges, pp. 248 et suiv

(٥) الشهرستانى ، الملل ، جـ ٢ ، ص ٣٣٨ ، ٣٤٣

الكتابين مؤلفات شراح (أرسطو) من فلاسفة الاسكندرية الذين أشرنا إليهم آنفاً. فان هؤلاء الشراح لم يقدموا للعرب المذهب الأرسطى فى صورته القديمة، بل مختلطاً ببعض النظريات الأفلاطونية والرواقية وأجزاء من الأفلاطونية الحديثة، ويدهشنا أنه لم يتنبه أحد بعد إلى هذه النقطة برغم مالها من أهمية، وإن من يتأمل قليلاً يدرك أن واحداً (كپورفير) أو (كسمپليوس) إن شرح (أرسطو)، فانه لا يستطيع التخلص تماماً من آرائه الشخصية، أو التخلى بتاتاً عن نظريات مدرسته (١)، لذلك لم تنتج الحركة الفلسفية التى قام بها علماء الاسكندرية فى القرن الثانى الميلادى، والتى بينها (رينان) و (رافيسون) بياناً شافياً، مذهباً أرسطياً خالصاً، بل نظرية مشوبة بعناصر مختلفة (٢)، فقد كان شراح الاسكندرية معنيين بالتوفيق بين (أرسطو) (وأفلاطون) من جانب، وبين الأول وجماعة الرواقيين من جانب آخر؛ وهذا التوفيق نفسه هو أوضح خاصة من خصائص الفلسفة الاسلامية. ونعتقد أنا إذا أردنا أن ندلى بحكم دقيق على هذه الفلسفة، فلا بد أن يكون بين أيدينا شروح فلاسفة الاسكندرية وشروح كبار أتباع (أرسطو) الأول. وما دامت هذه الشروح لم تدرس دراسة وافية فان آراءنا وأحكامنا المتعلقة بتاريخ الأفكار الفلسفية فى الديار الاسلامية ستبقى ناقصة ومؤقتة

ابراهيم بيومى مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة

(١) Waddington, Simplicius, dans Dict. d. s. philos., p.1618

(٢) Ravaisson, Essai sur la Mét, d'Aristote, Paris, 1846, II,540 — Renan, Averroès, 93. — ch. Bréhier, Histoire, I. 444. 447,

إلى الشاب المسلم المثقف

الاسلام دين القوة

بقلم أحمد بديع المغربى

أستاذ الاجتماعيات بالمدرسة الثانوية بالموصل

طفا على الجزيرة العربية نورٌ سماوى تسرب إلى القلوب المغلقة فاقتحم أقفالها، ونفذ إلى الضمائر الميتة فبعث فيها حياتها، وتغلغل فى أحشائها فبدد ظلماتها. وصحب هذا النورَ صوتٌ عربىٌ ينادى بالاسلام تعالى فى أرجائها، فجمع أشتاتها وألّف بين قلوبها

« هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ؛ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »

قبائل بدوية متنافرة أعمى الجهل أبصارها، وعشائر رُحّل متناحرة مزق الغزو وحدتها، وهدد السلب والنهب كيانها؛ نفوسٌ أبيّة رضعتْ لبانَ الحرية منذ طفولتها، وتنشقت هواء البادية المشبع بروح الأنفة والكبرياء والشمم والأباء منذ أن شبّتْ عن أطواقها

هذه القبائل المتنافرة، وتلكم العشائر المتناحرة، ما استطاعت أن تجد من نفسها حولاً ففاضت دموعها خشوعاً واجلالاً، وخرت للأذقان سُجّداً، وانصاعت لذلك الصوت الدَّوِىّ الذى اخترق آذانها الصماء، وانقادت قلوبُها الغُلْفُ طوْعاً لذلك النور السماوى الذى غمرها بالضياء . . .

« إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا، وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً »

« وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ »

فتحولت من الضعف إلى القوة، وانتقلت من التفرقة إلى

الوحدة ، واستبدلت بالتخاذل ائتلافاً ، وبالجهل والوحشية علماً ومدنية ، وارتفعت من أسفل دركات الشرك والألحاد ، إلى أعلى درجات التوحيد والايمان

ثم هبت من باديتها الفسيحة الأرجاء الممتدة الأطراف هبوب العاصف الزعزع ، متكاتفة متراصفة ، متحدة متضامنة ، فعصفت الممالك التي اعترضت سبيلها عصفا ، ودكت المعتقدات الدينية البالية دكا ، وحطمت العروش المستبدة الجائرة تحطيما ! ولم يمض عليها القرن ، إلا قليلا ، حتى قيض الله لها أن ترفع راية الأسلام وتنشر ألوية السلام من أقصى البرنات الى حملايا ، ومن بوادى أواسط آسية حتى صحارى أواسط أفريقية ؛ وما كنت تسمع صبحاً وظهراً وعصراً ، مغرباً وعشاء ، إلا صوت المؤذن داعيا بقلب عامر بالايمان : —

الله أكبر !

أشهد أن لا إلـه إلا الله !

أشهد أن محمداً رسول الله !

فيتقاطر المؤمنون كالموج الزاخر ، متدافعين متسابقين ، لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، الى بيت الله ، بيت الأمة ، بيت الديمقراطية الحق ؛

فما السر فى تهافت العرب والأمم التى دانت للعرب على الاسلام ؟!

إنه ، وايم الحق ، لسؤال تقف دون تفسيره العقول النيرة حيارى . ولئن حاولنا فى رسالتنا الى الشاب المسلم المثقف أن نجلو هذا السر الغامض ونعلل هذه المعجزة الكبرى فانما نحاول أن نظهر ناحية واحدة من نواحيها المتشعبة ، هى « القوة فى الاسلام » :

١ — القوة فى المبدأ

٢ — القوة فى الاتحاد

٣ — القوة فى الأخلاق

٤ — القوة فى الشخصية ؛

وهى الناحية التى يفتقر اليها المسلمون فى تنظيم شئونهم فى هذا العصر ، عصر القوة ، بل عصر تنازع البقاء وبقاء الأنسب ، حتى يتسنى لهم أن يعيدوا مجداً كاد يندثر ، بما منيت نفوسهم من خور العزيمة ، وضعف الهمة ، وتذبذب الأهواء ، والميول ، وميوعة الأخلاق ، وانحلال الشخصية ، متوسلين الى الله عز وجل ان يهدينا واياهم سواء السبيل

١ — القوة فى المبدأ

تأمل ، رعاك الله ، فى تلك الوفود القرشيّة العربية التى هرعت إلى أبى طالب بعد أن ضاقت صدورها من سب الرسول صلى الله عليه وسلم آلهتها وآباءها ، وبعد أن عيل صبرها من تسفيه أحلامها مهددة متوعدة ليكفه عنها ، أو تنازله وإياه حتى يهلك أحد الفريقين ، ثم ارجع البصر فيما جرى بين الرسول الكريم وعمه الجليل حين أنبأ ابن أخيه بما قالت قريش : —

« ابق على نفسك وعلىّ ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق »

يتجل لك بصورة لايداخلها الريب ما انطوت عليه نفس رسولنا الأعظم وزعيمنا الأكبر من قوة الثبات فى المبدأ : —

« والله ، ياعماه ، لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه . . . . ما تركته ! »

وتبصر ما أصاب المسلمين الأولين من الاضطهاد والعذاب ، وما تجشموه من المشاق والصعاب ، من تعذيب المشركين لهم بحر الرمضاء وبقر بطونهم بالحراب فى سبيل الدفاع عن هذا المبدأ ، ثم اخل إلى نفسك وانظر ما أنت عليه اليوم وما كانوا عليه أمس !

٢ — القوة فى الاتحاد

إذا تدبرت مبدأ الفاشيست علمت أن شعار موسولينى ومشايعيه ذوى القمصان السود : « الفأس وحزمة العصى » . والفأس رمز الدولة ، والعصى الأفراد الذين يؤلفونها ، والفرد ، فى نظرهم ، قوىٌّ بجماعته ، ضعيفٌ بمفرده ؛ مَثَلُه فى ذلك مَثَلُ العصا يسهُل كسرها بمفردها ، ولكن الصعوبة كلّ الصعوبة فى كسرها إذا ما ضمّت إلى أخواتها . والفاشستية تنحصر فلسفتها فى فناء الأفراد فى الدولة وانحلال شخصياتهم فيها . ولماذا نذهب بك إلى الفاشستية ولدينا ديننا الاسلامى ، دستور الحضارة والانسانية ، ففيه الأمثلة المتعددة على أن حياة الشعوب فى تضامن أفرادها واتحادهم . قال الله فى كتابه العزيز : —

« وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا ؛ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً » — سورة آل عمران

« وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ » — سورة الأنفال

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا » سورة الحجرات

« إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » — سورة الحجرات

وقال منقذنا الأعظم رسول الله صلى الله عليه وسلم : —

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »

« لا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا »

لا تختلفوا فان من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا »

« المسلمون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله ، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله »

فليتق الله ، عباد الله ، الذين يعملون على التفرقة ويسعون إلى التجزئة فان فى ذلك الخسران المبين

٣ — القوة فى الأخلاق

وإنما الأممُ الأخلاقُ ما بَقِيَت
فإنْ هُمُ ذهبتْ أخلاقُهُمْ ذهبُوا

« إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُختالاً فَخُوراً » — سورة النساء

« ولا تمشِ فى الأرضِ مرحاً إنَّكَ لَنْ تخرقَ الأرضَ ولَنْ تبلغَ الجبالَ طولاً » — سورة الاسراء

« وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ولا تمشِ فى الأرضِ مرحاً ، إنَّ اللهَ لا يحبُّ كلَّ مُختالٍ فَخورٍ ؛ واقصدْ فى مَشْيِكَ واغْضُضْ منْ صوتِكَ ؛ إنَّ أنكرَ الأصواتِ لصوتُ الحمير » — سورة لقمان

وقال رسولنا الأعظم : —

« بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

« إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد »

يقول الله عز وجل : — « الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحداً منها ألقيته فى النار »

ألا فليعلم أولئك الضعاف العقول الذين إذا تبوأوا منصباً رفيعاً شمخوا بأنوفهم وصعروا للناس خدودهم ، واشتطوا فى غرورهم وكبريائهم ؛ أنهم مهما ما بلغوا من السلطان والجبَرُوت ، لن يخرقوا الأرض ولن يبلغوا الجبال طولاً !

أين أنتم يا مساكين من رسول الله وحبيبه صلى الله عليه وسلم ، من شهد الله وأثنى على خلقه العظيم !

« هَوِّنْ عَلَيْكَ ، يا رَجُل ؛ فانما أنا ابنُ امرأةٍ من قريش كانت تأكل القديدَ فى مكة ! »

بمثل هذا القول الكريم خاطب نبينا المصطفى ذلك الرجل البائس الذى أصابته رِعْدَةٌ لدن دخوله عليه

وبمثل هذا الخلق المتين استعبد الاسلام قلوب الناس !

٤ — القوة فى الشخصية ـ الشجاعة والاقدام

إن التواضع لا يناقض الشجاعة والاقدام ، فكما أن القرآن الكريم حث المؤمنين على التواضع ، واعتبره من الأسس المتينة التى تقوم عليها الأخلاق القويمة ، كذلك أمرهم أن يَصْمُدُوا لأعدائهم ويدافعوا عن كرامتهم ويذودوا عن أوطانهم ، ويصدوا من تسول له النفس الاعتداء عليهم ما استطاعوا من قوة يرهبون بها خصومهم وأعداءهم ، حتى هدد الجبناء الذين يفرون من القتال والجهاد بغضبه ونقمته ، كما نستدل من الآيات الكريمة التالية :—

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدُوا إنّ الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثَقِفْتُمُوهُمْ وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » ـ سورة البقرة

يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا » ـ سورة الأنفال

« وأعِدُّوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل . ترهبون به عدو الله وعدوكم » ـ سورة الأنفال

« ياأيُّها الذين آمنوا إذا لَقِيتم الذين كفروا زحفاً فلا تُوَلُّوهُمُ الأدْبارَ . ومن يُولِّهم يومئذٍ دُبُرَه إلاّ مُتحرِّفاً لِقتالٍ أوْ متحيزاً إلى فِئةٍ فقد باءَ بغضبٍ من اللهِ ومأْوَاهُ جهنمُ وبِئْسَ المصير » سورة الأنفال

وجاء فى الحديث الشريف عن الرسول صلى الله عليه وسلم مخاطباً سيدنا علياً كرم الله وجهه : —

« ياعلى ! كن شجاعاً فان الله يحبُّ الشجاع »

كذلك حرض المصطفى المؤمنين على الانصاف بصفات الرجولة الكاملة ، ولعن الشباب المائع المتخنث ، كما لعن تلك الفتيات المتشبهات بالرجال

« لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء ؛ والمتشبهات من النساء بالرجال »

والآن وقد انتهينا من محاولتنا اثبات أن الاسلام دين القوة ؛ القوة فى المبدأ ، والقوة فى الاتحاد ، والقوة فى الأخلاق ، والقوة فى الشخصية ؛ لا بد لنا قبل أن نختم رسالتنا أن نَلْفِتَ أنظار شبابنا المسلم المثقف إلى الملاحظات التالية :

١ — كن أيها الشاب المسلم ، وكونى أيتها الفتاة المسلمة ، مثلا طيباً فى قوة المبدأ . ليضع كل منكما هدفاً واحداً أمام عينيه هو توحيد الأمة الاسلامية ، يعمل على تحقيقه بكل ما حباه الله من قوة الشباب غير عابئٍ بما يعترض سبيله من عقبات كأداء ، أو مكترث لما يحاول بعض المغرضين الدساسين من تثبيط همته القعساء

اعمل يا أخى المسلم ، اعملى يا أختى المسلمة على نشر مبدأ الاتحاد والوحدة أينما كنتما وحيثما حللتما ، وألقيا حجراً كل من تسول له النفس أن يثنيكما عن عزمكما

٢ — اقتديا برسولنا الأعظم سيد المرسلين ، وزعيمنا الأكبر خير العالمين فى تقويم ما اعوجّ من أخلاقكما ، فان أمتكما العربية أحوج ما تكون فى تحقيق ما تصبو اليه من الآمال الى شباب يمتازون بثبات الجنان ، ولين الجانب ، وقوة الارادة ، ومضاء العزيمة

٣ — ليتعصب كل منكما لمبادئه الدينية ، وليتمسك بعقائده الاسلامية ، وليحافظ على تقاليده العربيـة ، فان الأمة التى تتسامح فى مبادئها ، وتتساهل فى عقائدها ، وتتنكر تقاليدها مقضى عليها بالانحلال والاضمحلال

الموصل ـ العراق — أحمد بديع المفرجى

دار وحبيب...!

للأستاذ محمد سعيد العريان

يا دار ، ليتني ضللت إليك الطريق . . . !

منذ سنوات وسنوات ، كنتِ مَغْدايَ ومَراحي ، وكنت سعادتي وأنسي ، وكنتِ دنياي الصغرى ؛ تلتقي عندكِ أمانيُّ الشباب ، وتستيقظ فيكِ أحلام الهوى !

فأين يومك من أمسِك يا دار ؟

أما يومك – وا أسفاه – فهذا الذي أرى : كومة من أحجار ، إلا جداراً يريد أن ينقضّ ! وأما أمس . . هل تذكرين يا دار . . . ؟

أينَ ، أين ألقى أهلَكِ الذين ابتعدتْ خُطاهم على الأيام ؛ وأيّانَ ، أيان تعود لياليك التي طواها الزمان ؟

هنا ... منذ سنوات وسنوات ... أودعتُ قلبي الى ملتقىً موعود ؛ فأين منكِ الوديعةُ يا دار ؟

ما أظن الأيام على سلطانها بقادرة على أن تهدم ذكراكِ في نفسي !

***

ومضيتُ أتخطّى الأنقاض وهي تئن من تحتي أنين الواجد ، حتى انتهيتُ إلى الهيكل المستباح !

يا لله ! كلُّ شيء حيٌّ في هذا المكان . إني لأسمع همس الذكرى يُرجِّع في مسمعيّ حديث الماضي ؛ وإني لأرى أطياف الحب ترفُّ رفيفَ الحياة ؛ وإني لأشمُّ من حولي عبير اللقاء يتخطّى بي الزمانَ والمكان ؛ وإني لأراها هي أمامي ، كأوّل عهدنا يوم التقينا ، فتعارفنا ، فأمرّتْ وأسررتُ النجوى !

مرحباً بكِ يا فتاة ! يا لعينيكِ الساحرتين ! ما لأهدابك تختلج كأنما تغالبين النعاس ؛ ومالك صامتةً لا تنبسين كأننا غريبان في هذا المكان ؟ ماذا ؛ مالكِ معرِضةً منكِرة . . . ؟

انني أنا هو يا فتاتي كعهدكِ يوم افترقنا على ميعاد . . .

ردّي عليّ لياليّ ، وصِلي يومَنا بماضينا . . .

لقد ابتعدتْ عني بلا وداع . شدّ ما تسخر منا الأماني !

***

وبدا لي من خلل الدموع شبح يقترب بين الأنقاض . . . ذاك شيخ يدبّ على عكازة لوّحتْها السنون . . . يعلو حجراً ويهبط عن حجر ؛ فدنا مني وقد تقلصت شفتاه عن مثل الابتسامة ، أي منظرٍ موحِش . . . ؟

قلت : « مَن تكون أيها الشيخ ومالي بك عهد ؟ »

قال : « أنا ... ؟ ما أشدّ حماقة الفتيان ! أنا الزمان ... ! وإنما لي أن أسألك : ماذا تَنشد بين هذه الأنقاض ؟ »

قلت : « في هذا المكان ، أودعتُ شيئاً عزيزاً عليّ ، إنه قلبي ؛ أفتدري أيها الشيخ أين ألقاه ؟ »

هنا ، في هذا المكان ، كان لي أهل وأحبّة ، وكان قلبي لديهم وديعة ، إن الدار لتشهد ؛ فاني لأنشد هنا قلبي وشبابي وحبي . . . ! »

قال : « ويحك يامسكين ! أتسألني ؟ أتسأل الزمانَ أن يردّ عليك مافات . . . ؟ إنك يابنيّ تؤمن بالحب ، فاسأل الحبّ – إن أجاب – أن يردّ عليك ما استودعته . . . ! ما الحبّ يابنيّ إلا خرافة ؛ هل هو إلا أرقٌ يراوح بين جنبيك ، ودموعٌ تقرّح بين جفنيك ، وانتظار يستلب شبابك من عمرك ، وحنينٌ يسترقُ يومك من تاريخك ، وغيرةٌ تسلبك الطمأنينةَ والقرار ، وشكٌّ يُنبت في صدركِ الشوك ؛ وهل هو من بعدُ إلا الندمُ واللهفة والذكرى ؟ أفرأيتَ شيئاً من ذلك يعدل ساعةً من ساعات الشباب ، أو يردّ عليك سعادةً من سعادات الماضي ...؟ هيهات يابنيّ هيهات . . . ! »

ومضى الشيخ على وجهه ، وإن في صدره لسراً . . . !

***

وعدوتُ في أثر الزمان أجاذبه السرّ ؛ فما بلغتْ اليه نفسي وغاب في جوف الظلام . ورجعتُ منكسراً لهفان ، أنهنه أدمعي وأغالب نفسي

وإذا على الطريق شابٌ يبتسم

قال : « مرحباً بك ياصديقي ؛ أراك على حيد الطريق فأين أزمعت المسير ؟ »

قلت : « أتراك تعرفني يا فتى ؛ فمن تكون ؟ »

قال : « أنا . . . ؟ ما أعجب أن تنسى ! أنا رفيق صباك ، وأنيس أحلامك ؛ أنا الأمل . . . ! فما أشد أن ينكرني الشباب ! »

قلت : « معذرةً إليك يا أملي ، وإنما صرفني عن ذكرك هذاك الزمان ! »

قال : « الزمان . . . ؟ ويحك ! وأين منك الزمان وما تزال في يديك أيامك ؟ ألا إن الشباب ليصنع بيديه أيامه ، ويخط بيديه تاريخه ، ويُملي على الزمان مشيئته ...! ألا إن هذا الشيخ الخرِفَ الذي تسميه الزمانَ لعاجزٌ أن ينالك ومعك الشباب والأمل ! »

قلت : « فانني أفتقد شيئاً هنا . . . في هذا المكان ... كان لي أهلٌ وأحبة ، أودعتهم قلبي إلى ملتقىً موعود ؛ فهذه الدار خلاء كما ترى ، إلا أنقاضاً ركمها الزمانُ حجراً على حجر ؛ أفتدلني أين أجد أحبابي وقلبي ؟ »

قال : « لك الله ولأحبابك ! أفحسبتَ أنك وحدك الوفيّ الذاكر ؟ إن فتاتك ما تزال هناك تنتظر ، وإن الوديعة الغالية ما تزال في الحرز الأمين ! »

قلت : « فما هذه التي تراءت لي هنا ثم تولت معرضة لم تنبس ؟ »

قال : « ويحك ! ألم تفهم مقالة عينيها وأهدابُها تختلج ؟ إنها تقول : اتبعني يا حبيبي . . . ! »

قلت : « أفتراها مستطيعةً أن تردّ عليّ أيامي ، وقد تولى الزمان وحال المكان ؟ »

قال : « إن الحب لا يعرف الزمان ولا يحدّه المكان ، إنه لشيء من غير دنيانا ، لا يخضع لنواميس هذه الحياة ؛ إن العاشق ليذكر على البعاد من يحب ، فاذا الماضي كله بين يديه ، وإذا الذي يهواه تحت ذراعه ؛ وإنهما لاثنان هنا : هو وخيالُ من يحب ؛ واثنان هناك : هي وطيفُ من تهوى . أفرأيتَ الزمانَ والمكانَ ساعتئذ قد استطاعا أن يحولا دون هذا اللقاء ؟ أو رأيتَ شيئاً غيرَ الحب يجعل الاثنين أربعةً في زمان ومكان . . . . ؟

« ألم تفهم مقالة عينيها وأهدابُها تختلج ؟ إنها تقول : اتبعني يا حبيبي . . . . ! »

* * *

ولمحتُ زهرةً ترفّ رفيفَها في ظلّ جدار قائم ، وهي تناجي أختها نجوى الحزين الى الحزين ؛ كانتا وحدهما في هذا المكان رمزَ الحياة بين رموز الموت من تلك الصخور المجدّلة . وإن للأحجار والجماد لحياةً كحياة الناس وموتاً كالذي ماتوا ، إن البيت الآهلَ لحيٌّ بسكانه ما عمروه ، فاذا احتملوا وهجروه فما هو حينئذ بيتاً حياً وإن بقيتْ له معالمه وأبوابه ، ومفاتحه وأقفاله ، وإن في التراب يغطي أرضه وجدرانه لَمعنًى من معاني القبر !

ودنوت أستمع الى نجوى الزهرتين :

قالت إحداهما لجارتها : « ويلي — يا أختاه — من المقام بين تلك الأنقاض الميّتة ! ما أكاد أشعر أنني زهرة ذات رَوح وعبير . لماذا تمتّعني الأرض وزيّنتني بألوان الربيع إذا كنت لا أرى العين التي تتملّى حسني معجبةً شهوى ؛ ولماذا أنا زهرة إذا انقضت حياتي على وتيرتها بين هذه الأنقاض ؛ لا يَشمُّ عبيري أحد، ولا تتناولني يدٌ رفيقة . . . ؟ »

قالت أختها : « فانك لتبطرين النعمة ! وإنك في مقامك هنا لأسعدُ من أخواتٍ لك هناك في الروض ؛ ما تكاد تتفتّح عنهن الأكمام حتى تتناولهن الأيدي ؛ فيوماً في الحرير على الصدر، ويوماً في زهرية على المائدة ؛ ثم هي بعد مع الزبالة تطؤها النعال . . . ! »

قالت : « وهل أنا زهرة إلا أن أكون عطراً يُستنشى وجمالاً يُشتهى؛ ويوماً على صدر، ويوماً في زهرية ؟ ألا إن يوماً واحداً هناك يُشعرني جمالي — لخير من أيام هنا على الغصن الشائك ، ما ينفك يَحزُني كلما مالت به النسمات ! ألا إنما السعادة قلب وابتسامة ، وإنما الحياة أن أكون شيئاً في الحياة ! »

وهبّت نسمة عاتية ، فاذا الزهرة ورقاتٌ منثورة على التراب . . . !

يا ويلتا ! حتى هذه الأشياء تنشد الحب ، وتستوحش من الوحدة والخراب . . . !

أيتها الزهرة التي انتثرت غضّةً عبقةً لم تنعم بالحب ؛ كم من قلوب بشرية كقلبك ؛ انتثرت أحلامُها بدداً على أنقاض اليأس والحرمان ، قبل أن تستنشي عطرَ الحب ، أو تذوقَ لذة المنى . . . !

عزاءً لكِ ولي . . . . !

طنطا

محمد سعيد العريان

١١ - قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur

صلة حديثه

وصل القارئ : أثبت بستور أن الذى يحيل السكر إلى كحول فى صناعة المشروبات الروحية إنما هو الخمائر. وهى أحياء غاية فى الصغر، شكلها كرى، تتوالد وتتزايد بالتنبت فالتقسم. وأثبت أن عملية التخمر عند ما تفسد فلا تنتج من السكر كحولاً، فانما يكون ذلك بسبب مكروبات أصغر من الخمائر، شكلها كالعصى، تسطو على محاليل السكر فتذهب بخمائرها، وتقوم بعملية جديدة مفسدة هى تحويل السكر إلى حامض اللبن الزبادى بدلاً من الكحول

وبينا هو فى هذا، وبينا هو مستقر بأسرته فى «ليل»، إذ جاء زوجه يوماً يقول لها: «نحن ذاهبون إلى باريس، فقد ولّونى فى مدرسة النرمال إدارة أبحاثها. وهذه فرصة عظيمة لابد من انتهازها»

وانتقلوا إلى باريس. ولما جاء بستور مدرسةَ النرمال لم يجد بها مكاناً يشتغل فيه. وجد قليلاً من معامل للطلبة، ووجدها سيئة قذرة. أما الأساتذة فلم يجد لهم شيئاً. وأسوأ من هذا أنه ذهب إلى وزير المعارف يستوضح الحال، فقال له الوزير إن الميزانية ليس بها قرش واحد يُنفق على تلك القوارير والأفران والمجاهر التى لايستطيع الحياة إلا بها. وما رجع حتى أخذ يدور فى المكان القديم القذر، يبحث فى أسافله وأعاليه عن ركن يعمل فيه، وهداه البحث أخيراً إلى سُلم، هداه فى مشقة إلى حجرة صغيرة عند سطح البناء كانت ملعباً للفئران، فطرد الفئران منها واستولى عليها وصاح: هذا معملى. ولم يلبث أن وجد مالاً لشراء مكرسكوباته وأنابيبه وقواريره — ولكن من أين؟ لايدرى أحد يقيناً. كان لابد له من المال، فاعتزم أن يجده فكان. لا بد أن تعلم الدنيا خطورة خمائره هذه فى الحياة. ولم تلبث الدنيا أن علمت بخطورتها

استيقن من تجاربه السابقة أن تلك العصى الصغيرة تحيل السكر إلى حامض اللبن، وعندئذ قام فى نفسه أن الدنيا لا بد بها الألوف من أشباه هذه العصى، تُجرى ألوفاً من أشباه هذه التحويلات، وتأتى بأمور أكبر وأخطر من هذه، منها الضار ومنها النافع. «إن هذه الخمائر التى أرانيها مجهرى فى أحواض البنجر السليمة، هى هى التى تُخرج من السكر كحولاً. وإنها لخمائر كذلك تلك التى تُخرج من الشعير جعة. وإنها لا شك خمائر تلك التى تخرج من عصير العنب خمراً. أنا بالطبع لم أثبت هذا بعد، ولكنى أعلم أنه صواب سيأتى إثباته». ومسح نظارته فى سرعة، وصعد إلى معمله فى بشر وخفة. فلا بد له من تجارب ليثبت لنفسه صدق الذى يقول. لا بد من تجارب ليثبت للدنيا صدق ما زعم. فالعالم لم يكن آمن بعدُ بالذى قاله

وكان ممن عارضه الألمانى ليبج Liebig (١) شيخ الكيمياء وسيدها وأميرها: «... ليبج يقول إن الخمائر لادخل لها فى تحويل السكر إلى كحول. ليبج يدعى أنه لا بد من وجود زلال albumen فى السائل، وأن هذا الزلال ينحل ويتهدم فيهدم السكر معه فيتكسر إلى كحول». واعتزم بستور أن يدحض رأى ليبج. وفى ساعة برقت فى خاطره بارقة، حيلةٌ ماكرة، تجربةٌ بسيطة واضحة، تقهر ليبج وكل من يَشدُّ أزره من هؤلاء الكيميائيين الذى يسخرون من هذه الخلائق المكرسكوبية الصغيرة ويهزأون بما تقوم به من عظائم الأمور

«يجب علىَّ أن أزرع هذه الخمائر فى محلول من السكر

---

(١) هو جستس فن ليبج Justus von Liebig (١٨٠٣—١٨٧٣) الكيميائى الألمانى الشهير الذى نجد اسمه فى كل معمل للكيمياء، لأنه اخترع المكثف البسيط الذى يحمل اسمه الى اليوم. ولد بدار مشطاط Darmstadt بألمانيا، وكان أبوه يمارس صناعة التمليح ويتجر فى الألوان. قضى نحواً من ثلاثين عاماً أستاذاً فى جيسن Giessen بألمانيا، فأدخل فيها تدريس الكيمياء العملية ودرس فيها وبحث حتى جعلها أشهر مدرسة للكيمياء فى العالم. ثم انتقل إلى مونيخ أستاذاً بها وهناك كانت وفاته. أشهر أبحاثه فى الكيمياء العضوية فقد أعان فى وضع أسسها الحالية. ولكنه درس كذلك فسلجة الحيوان والنبات فاعتقد أن حرارة الحيوان تنشأ من احتراق الغذاء فيه. ودرس أن النبات يأتى بكربونه وأكسجينه من الجو ويأتى بأملاحه من الأرض. ومنح البارونية. ومنح الكثير من أجازات المعاهد العلمية وأنواطها

لا زلال فيه . فاذا هى أحالت السكر إلى كحول ، إذن فعلى ليبج وعلى نظرياته العفاء » . وامتلأ عناداً ، وامتلأ تحدّياً ، فقد كادت تنقلب هذه الخصومة العلميـة إلى خصومة شخصية . جاءته الفكرة الجليلة للردّ على خصيمه ، ولكن الفرق واسع بين الفكرة تخطر فى الرأس ، وبين الفكرة تتنفّذ فى المعمل ، فأنّى له بطعام خلوٍ من الزلال ، وهذه الخمائر اللعينة شبّت على النعمة ، واعتادت مذاق كل لذيذ مرئ . أخذ بستور يدور فى معمله ثم يدور ، يبحث عن طعام يطيب لهذه الخمائر ، وقضى على هذا أسابيع حتى فرغ جهده وضاق صدره . وفى ذات صباح وقع له حادث غير منظور فتح له ما استغلق عليه

كان قد وضع بالمصادفة شيئاً من ملح النشادر فى مرق زلال وضع فيه خمائر لتتزايد وتتكاثر . « ما هذا ؟ إن ملح النشادر يتناقص من المرق كلما تزايدت تلك الخمائر فيه ! ما معنى هذا ؟ » وأخذ يفكر . « نعم . نعم . إن الخمائر تعيش على النشادر . إنها تعيش من غير زلال ! » . وردّ الباب ردّاً عنيفاً فاهتز البناء ، فلا بد له الآن من الوحدة وقد أراد العمل ، كما كان لابد له من الناس إذا أراد المتعة بالافاضة بنتائجه الباهرة الى الجماهير المعجبة المتحمسة . وتناول قبابات نظيفة وصب فيها ماء مقطّراً نقياً ؛ ووزن فى دقة مقداراً من السكر النقى ، وزلّقه الى الماء ، وأضاف اليه ملح النشادر ، وكان نشادر الدردىّ . ثم غاص فى القارورة التى تنفّشت بالخمائر الصغيرة المتنبتة ، وأخرج منها شيئاً وضعه فى القبابة مع السكر وملح النشادر . ثم وضع القبابة فى محْضن دافئ ثم تركها

وفى هذه الليلة أخذ يتقلب فى مضجعه ، يطلب النوم فلا يؤاتيه . وأسرّ رجيّاته ومخاوفه الى مدام بستور ، فهدّأت من روعه ، ولكنها لم تستطع نصحه . نبض قلبها بنبض قلبه ، وضاق صدرها بمثل الذى ضاق به صدره ، ولكنها لم تقدر على مطارحته العلم وتأميله فى النجاح القريب . كانت خير عون لخير زوج

وما كاد الصباح يهم بالشروق حتى كان الى جانب قارورته ، تلك القارورة التى خبأت له من صروف المقادر ما خبأت . لم يدر كيف صعد السلم إليها . لم يدر ما الذى أكله فى افطاره . كل الذى أحس به أنه واقف الى قارورته قد احتواها هذ المحْضن المترب ، حتى لكأنما طار فى الهواء الى حيث كانت . فتح القارورة وأخذ منها قطرة عكرة ، فوضعها بين قطعتين رقيقتين من الزجاج ، وضعهما تحت عدسة مجهره ، ثم نظر . وعندئذ علم أن الدنيا أسلمت اليه القياد

«هاهى ! هاهى ! جميلة فى تنبتها ، جليلة فى صغرها وكثرتها . مئات الألوف فى احتشاد بديع . وهاهى وحدات من أمّات الخمائر الكبيرة التى بذرتُها فى القارورة بالأمس» . وامتلأ صدره فهمّ بالخروج ليُفيض على الخلائق بالذى ملأه ، ولكنه رجع فكبح جماح شهوته ، فلا بد له من علم شىء آخر خطير جداً . وأخذ شيئاً من سائل القارورة ووضعه فى معوّجة ، وأخذ يقطّره على النار ليرى هل أنتجت تلك الخلائق من السكر كحولاً . « ليبج مخطىء فى زعمه ، فالزلال لا ضرورة له ، فتلك الخلائق النامية هى التى تخلق من السكر كحولا » . وأخذ يرقب قطرات الكحول وهى تسيل من عنق الموجة . وقضى ما تلا من أسابيع فى تكرار تجربته ، ثم تكرارها ، ليؤكد أن الخمائر لا تني تتكاثر ، وأنها لا تني تخرج كحولا . ونقلها من قبابة الى قبابة ، ومن مرق الى مرق ، فوجدها تتنبّت دائماً ، وتتزايد دائماً ، وتملأ رقاب القبابات دائماً برغاء من أكسيد الكربون المتصاعد من التخمّر . ووجد الكحول دائماً بالقبابات . كان عملاً جدّ عسير ، حدا به اليه زيادة الحرص على صدق نتائجه ، وخشية الخدعة فيما يتراءى له أنه الحق

استوثق من خمائره ، وأصبح أمرها لديه معروفاً مألوفاً ، ولكنها لم تزد فى عينه على الأيام إلا جِدّة ، ولم تزده ألفته إياها إلا اعزازاً لها . كان يرعاها كالأم الرؤوم ، يطعمها ويحبها ويعجب بمجهودها الهائل فى قلب السكر الكثير الى كحول . وفوّت على نفسه بذلك وجبات الطعام ، حتى اعتل مزاجه وفسدت صحته . ذكر أنه جلس اليها ذات مساء فى الساعة السابعة – وهى الساعة التى يحرص فيها كل فرنسى محافظ على اجابة دعوة المائدة – وأخذ يتجسّس عليها وهى تنقسم فتتزايد ، وأخذ يحدّق فيها ، ولزمت عينه المجهرَ حتى منتصف الساعة العاشرة . وعندئذ ، وعندئذ فقط ، آمن بأنه رآها تنقسم فعلاً ، فتتزايد من جواء

ذلك . وأجرى تجارب واسعة النطاق ، بعيدة الأمد ، تجارب امتدت من يونيو الى سبتمبر ، ليرى متى يَفرُغُ صبر هذه الخمائر فتنكص عن تحويل السكر . فلما علم من هذا ما علم صاح يقول : « أعطِ خمائرك سكراً ، تظل تعمل أشهراً ثلاثة أو فوق ذلك عدداً »

وعندئذ انقلب البحاث الى دعاء . انقلب العالم إلى تاجر بارع يُعنى بعرض بضاعته للناس ، فيثير إعجابهم ويبعث الحمية فيهم . وذلك فى سبيل الدعوة للمكروبات . فالدنيا يجب أن تعلم حقيقة أمرها ، والناس يجب أن تنقطع أنفاسهم من الدهشة إذا أتاهم نبؤها — إذا هم أُنبئوا أن ملايين الجالونات من خمر فرنسا ، وبحار البيرة التى تصنع فى ألمانيا ، لا يصنعها الرجال كما يحسبون ، ولكن جنود مجندة تعمل ليلَ نهارَ من مخلوقات لا تبلغ عشرات البلايين منها حجم طفل صغير من بنى الانسان

وألقى عن أبحاثه محاضرات ، وألقى فى الناس خطابات . ورمى فى وجه ليبيج حججاً تدمغ مزاعمه . ولم تلبث دولة العلم على الشاطئ الأيسر لنهر السين فى باريس أن تحركت ، فشملته أساتذته الأقدمون بالثناء . وأكاديمية العلوم التى رفضته بالأمس عضواً ، جاءت اليوم تمنحه جائزة الفسلجة (١) . وكلود برنارد رب الفسلجة ذاتها ، قام يصوغ لها المدائح عقوداً . ودوماس ، أستاذه القديم ، أستاذه الذى أصعد بمحاضراته الدمعَ الى عينيه وهو صبى أبله ، قام فى جمع عام يُطرى بستور بحديث رائع ، حديث جدير باخجال رجلنا . ولكن رجلنا لم يخجل ، لأنه استيقن أن دوماس إنما يقول الحق . كتب بستور الى أبيه : « وقام دوماس يتمدح استقصاءاتى واستطراداتى ، ثم وجه الخطاب إلىّ فقال : قد أجازتك الأكاديمية ياسيدى منذ أيام على أبحاث بارعة أخرى . واليوم يصفق لك هذا الحشد اعترافاً بأنك أستاذ فى أساتذتنا عظيم مجيد . نطق دوماس بهذه الألفاظ ذاتها يا والدى ، وتبع هذا تصفيق كان له دوىّ بعيد »

وبين هذا التصفيق كان من الطبيعى أن تسمع هسيساً من خصوم لا يرضون عما يقول . خصوم من خَلْق بستور نفسه . خصوم لم تخلقهم كشوفه الجديدة ، وتخطيئه لنظريات قديمة وعقائد عتيقة ، ولكن خصوم خلقهم سوء تحديه للناس . كان يكتب فتقرأ بين أسطره إعجابا بنفسه ، وتحقيره لكل من يتلكأ فلا يؤمن بالذى يأتيه تواً . كان يحب حوار الكلم ، ويُغرم كالديك بالناقرة لأتفه الأمور . كان يغضب ويدمدم لكل نقد ، حتى للتعليقة الساذجة يلفظ بها امرؤ عن أجروميته ، أو تنقيطه لكلماته . أنظر إلى صورته فى هذا العهد . عام ١٨٦٠ على التقريب — تقرأ فى كل شعرة من حاجبه اعتداده بنفسه ، وتحفزه للحرب دون يقينه . وطالعْ أبحاثه الشهيرة فى هذا الوقت ، تجد فيها الشموس والأباء ، حتى فى مصطلحاته العلمية وفُرْمُولاته (١) الكيمياوية

أثار بستور الخصومات حوله لتحديه الناس وازدرائه إياهم ، ولكن كان من بينهم من خاصموه بسبب اختلاف برىء على تجاربه . كانت تجاربه بديعة مدهشة ، ولكنها لم تبلغ دائماً الغاية والكمال . كانت عليها مآخذ وبها ثُغرات . مثال ذلك أنه كان يبذر فى محلول السكر بعض تلك المعىّ القصيرة التى تحيله إلى حامض اللبن ، فكان أحياناً يشم رائحة كريهة تخرج من القارورة هى رائحة الزُّبد إذا فسد ، ثم ينظر بمجهره فلا يرى للمعىّ أثراً . ويمتحن السائل فلا يجد به من حامض اللبن الذى أراده شيئاً . فهذه الخيبات التى اعتورت تجاربه كان يتخذ منها خصومه قذائفَ يحاربونه بها . وكانت تُقضّ مضجعه فلا ينام ليله . ولكن لم يدم أرقه طويلا . كان بستور غريب الأطوار عجيب المسالك ، ولم يكن بأقلها مسلكه إذا هو خاب . لم يستطع أصلا أن يُعلل لِمَ تحيد تخميراته أحياناً عن الطريق السوىّ المعروف ، إلى طريق معوج غير مألوف ، ومع هذا لم يظهر عليه أنه اهتم لهذا أبدا . كان ماكراً ذا حيلة ، فاذا انسد فى وجهه الطريق لم يحاول فتحه بنطحه ، فقد علم أن هذا لايجديه إلا تحطيم رأسه ، فكان يدور حول المُشكل دوزاناً ، ويزوغ من ورائه زوغاناً ، فيلويه ويَثنيه حتى يصبح له بعد أن كان عليه

لِمَ هذه الرائحة الكريهة ، رائحةُ الزُّبد الفاسد ؟ لِمَ لا يَنتُج حامض اللبن أحياناً ؟ ! وفى ذات صباح حدّق فى قطرات السائل ، فرأى حياً جديداً يعوم حول تلك العصى المتخاذلة المتناقصة . « ما هذه الأحياء ؟ انها أكبر من العصىّ كثيراً ،

---

(١) أو علم وظائف الأعضاء

(١) Formulas

وهي تعوم كالسمك عوماً ، هي إذن حيوانات صغيرة » ، وأخذ يلحظها لحظات الكاره لها ، الضائق بها ، المتبرم منهـا ، فقد عرف بالسليقة أنها دخيلة ، أنها زورة الضيف الثقيل لا أهلا به ولا سهلا . وكانت تتقاطر كالابل ، ولكنها إبل كريهة المنظر ، شوهاء الوجوه . أو هي كالأفاعي تنسل انسلالا . وأحياناً كانت تُوجَد فُرادَى ، وكان يدور الفرد منها دوراناً رشيقاً ، أو يتزن على عقبه ثم ينفلت انفلاتاً بديعاً . وكان منها الرّتاع والرّقص . مناظر ممتعة حقاً ، ولكن ما دخولها إلى ماء السكّر بغير دعوة ولا استئذان ! وحاول بستور مائة مرة أن يسدّ عليها السبيل كي لا تدخل إلى القوارير . وسلك لذلك سبلاً لا تروق لنا اليوم . وكان كلما ظن أنه قطع دابرها ، إذا بها تنط له في القوارير من جديد . وذات يوم خطر له أن هـذه الأحياء ذات صلة بالرائحة الكريهة التي كان يجدها ببعض القوارير

وبهذا أثبت ، في نوع من التحقيق ، أن هذه الأحياء صنف جديد من الخمائر تحيل السكر الى حامض الزبد الفاسد[1] . أقول في نوع من التحقيق ، لأنه لم يكن موقناً يقيناً تاماً بخلو قواريره من أنواع أخرى من الأحياء غير التي رآها . وبينا هو في خبلته ، ساهمٌ في حيرته ، تراءى له أن يُخرج النجّاحَ من خيبته ، ويطلب الفرج من أزمته . نظر الى بعض السائل بأحيائه الجديدة فوجد أن أوسط القطرة يتنفّش بها ، ويعج بحركاتها . ودار بمنظاره قليلا قليلا غير قاصد حتى جاء الى حرف القطرة ، فوجد تلك الأحياء فاقدة الحراك كجثث الأموات تصلباً وهموداً . وعاد فنظر في قطرة أخرى ، ثم في أخرى ، فوجد بها ماوجد بالقطرة الأولى ، فصاح : « إن الهواء يقتل تلك الأحياء » . وأكد لنفسه أنه كشف كشفاً خطيراً . وبعد قليل أخبر الأكاديمية أنه وجد خمائر جديدة ، خمائر غريبة ، تُخرج حامض الزبد من السكر ، وأنه وجد فوق ذلك أنها تستطيع العيش والحركة واللعب والعمل بدون هواء . بل إن الهواء يقتلها قتلاً . ثم عقب على هذا يقول : « وهذا أول مثل لحي يعيش بلا هواء »

ولسوء طالع بستور لم يكن هذا أول مثل ، بل ثالثَ الأمثال ، فان لوفن هوك كشف هذا قبله بمائتي عام . واسپلنزاني قبله بمائة عام وجد أن الأحياء المكرسكوبية تعيش ولا تتنفس

يترجح عندي أن بستور لم يعلم بهذين المثلين ، بل أنا جازم أنه لم يقصد إلى سرقة مجهود غيره ، ولكنه في ثورته لكسب مجده ، وتحرّقه لتكثير كشوفه ، تناقص اهتمامه بما جرى قبله وما كان يجري حوله . ومن هـذا أنه كشف من جديد أموراً كشفها غيره ، كأن كشف أن المكروبات تُفسد اللحم ، ونسي أن إشفان Schwann سبقه إلى ذلك ، ونسي أن يؤدي اليه حقاً وَجب

على أنه يحسن بنا ألا نحرج بستور في هـذا كثيراً ، ونَعدّ سيئاته في هذا الصدد عدّا ، ونحاسبه حساب الملائكة الشدّاد . ذلك أن خياله ، وهو من خيال الشعراء ، كان قد بدأ يثب الوثبة الأولى فيخال أن هذه المكروبات أعداء الانسانية وقتلة الرجال . ففي مقاله هذا كان يتحدث حديث الحالم فيقول : كما أن اللحم يفسد ، فكذلك قد تفسد الأجسام ، فتعترى الناسَ الأمراض . وتحدث عما قاساه من اللحم الفاسد وهو يعمل فيه . وتحدث عن كراهته للروائح الكريهة التي ملأت معمله وهو يجري هذه التجارب . « إن تجاربي في التخمر ساقتني بطبيعة الحال الى هذه الدراسات فتقبّلتُها على ضُرّها وخطرها وبرغم الكراهة التي تبعثها في نفسي » . ثم حدث الأكاديمية عما سياقاه في سبيل هذه الأبحاث ، وذكّرهم أنه لن يحجم عنها . واقتبس قول لافوازيه[1] : « إن أقذر الأشغال وأكثرها حظا من كراهة النفوس لَتهُون على المرء النبيل إذا هو توخاها لخير الانسانية ، وهي لا تزيد الرجل الا قوة على قطع الصعاب التي يلقاها »

(يتبع) أحمد زكي

(١) هو الكيماوي الفرنسي الشهير (١٧٤٣ — ١٧٩٤) صاحب الأبحاث المعروفة عن الهواء والاحتراق

(١) حامض الزبد هو حامض أعلى من حامض اللبن ، وهو كريه الرائحة وينتج في الزبد إذا فسد

موعد

للأديب حسين شوقي

لماذا تسرع هذه الفتاة فى السير ؟ لماذا ؟ إنها خفيفة الخطى كأنها القبرّة ، وكأنها عما قليل ستطير عن رصيف الشارع ..! لماذا تسرع فى السير ؟ لو أنها ذاهبة إلى عملها لكان هناك ما يبرر هذه العجلة ، ولكن هذا غير مستطاع لأن الساعة الآن السادسة ، والمكتب الذى تعمل فيه قد أغلق أبوابه منذ الساعة الخامسة . لماذا تسرع الفتاة فى السير إذن ؟ إنه يكفى أن تلمح فى وجهها علائم البشر والاغتباط لتدرك لماذا تسرع فى خطاها . . إنها على موعد من حبيبها . .

إنها سعيدة ، ولما كانت سعيدة أصبحت تعتقد أن الناس كلهم سعداء مثلها . . . ولكن انظر إلى هذه الطفلة الفقيرة النائمة على طوار الشارع بجانب الحائط ، لا يمكن أن تكون سعيدة وهى على هذه الحال من البؤس ، أحست نحوها الفتاة بحنو شديد حتى فكرت فى تبنيها . . . ربما تبنتها لدى عودتها من الموعد . . هاهو أيضاً كلب لا يمكن أن يكون سعيداً ، لأنه مجروح ، يتألم من جرحه ، فقد قذفه أحد الأطفال الأشقياء بحجر فأدماه ، تودّ الفتاة لو أنها تحمله الى الصيدلية لتضميد جرحه ، ولكنها مع الأسف متعجلة ، فهى على موعد من حبيبها ، وقد تأخرت عنه ، فالموعد فى الساعة السادسة ، والساعة الآن ست عشرة . . . مسكين حبيبها لابد أنه قلق من طول الانتظار ! إنها ترغب فى ركوب سيارة لتدركه بسرعة ، ولكنها تخشى أن يرفض سائق السيارة توصيلها ، لأن المكان الذى ينتظرها فيه الحبيب قريب جداً ، فهو على خطوات منها .. تنتقل الفتلة الى الطوار الآخر ، تخترق الطريق وهو غاص بالحركة دون أن تنتظر اشارة الشرطى المؤذنة بالمرور . . حقاً ! إن أمر هذه الفتاة عجيب ! ألكونها تحب تظن نفسها معصومة من الأخطار ؟ تدخل المقهى حيث ضرب لها حبيبها موعداً . . . . . . إنها تحس بدوار خفيف عندما وضعت رجلها على عتبة المكان ، إن قلبها أيضاً ليس فى حال طبيعية ، إنه يخفق بسرعة ، إذ هو أشد منها رغبة فى ملاقاة الحبيب ، ولكن لماذا تجهم وجه الفتاة فجأة ؟ لماذا ؟ لم تجد حبيبها فى المقهى ، بحثت عنه فى كل ركن ولكن بدون فائدة ، إنها تحس خورا فى قواها ، لذلك جلست هناك إلى مائدة ، ثم أخذت تنظر إلى ساعتها اليدوية التى أشار عقربها إلى السادسة والثلث ، ثم نظرت إلى ساعة المقهى الكبيرة المعلقة فى صدر المكان ، كأنها لم تقتنع بساعتها ، فاذا هى أيضاً السادسة والثلث .. تنادى الخادم فتسأله : هل ساعة المقهى مضبوطة ؟ فيؤكد لها الخادم ذلك . . علامَ هذا القلق ؟ علامَ ؟ إن الحبيب سوف يحضر .. لعل طارئاً قد عاقه . . إنها تطلب فنجاناً من القهوة لتهدئة أعصابها ، ولكن تأتى القهوة وأعصابها ما زالت مضطربة . . تتناول مجلة لتلهى بها نفسها ولكنها تعيدها بعد برهة إلى مكانها ، لأنها لاتفهم ما تقرأه ، مع أن المجلة ليست علمية صعبة ، بل هى تتحدث عن نجوم « هوليود » . .

تعود الفتاة إلى إرهاق ساعتها ، تنظر إليها مرة ، ثم ثانية ، ثم ثالثة ، ثم تعيد النظر فى ساعة المقهى .. ربّ ! كيف مرّ الوقت بهذه السرعة ؟ إن العقرب أشرف على السابعة ! هل داخل الساعة شيطان ياترى يتعجّل الوقت لاغاظة الفتاة ؟ يأتى الخادم وقد رآها قلقة ، فيسألها : هل تنتظرين أحداً ياسيدتى ؟ فتجيبه متلهفة بالايجاب ، ثم تعطيه علامات الحبيب لعله يكون قد رآه ، ولكن الخادم آسف لأنه لم يشاهده ...

تتأهب لمغادرة المقهى إذ يئست من الانتظار ، تغادر مكانها وهى أشد حزناً من حمامة هجرها أليفها ، ولكنها تعود ثانية إلى المقهى فقد نسيت أن تؤدى قيمة ما شربته . . تقف برهة على الباب ، إذ عساه يحضر . . ثم تطأطئ رأسها وتنصرف . .

تعود الى المنزل ، ولكنها تسلك هذه المرة طريقاً أخرى غير الطريق الأولى ، لأنها لم تعد ترغب بعد فى تبنى الطفلة الفقيرة ، ولا فى تضميد جرح الكلب . تدخل حجرتها فترتمى على السرير لأنها تحس بتعب شديد كأنها صعدت جبال « الهملايا » مع أنها فى الواقع مشت قليلا .. ليس ما بها من التعب ، بل من الحزن ، الحزن العميق . . .

تركت باب الحجرة مفتوحاً لتسمع التليفون إذا دق ،

٢٠ ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون او خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

قلت ـ نعم ولـكن لم يُروَ عن هرقليس نفسه أنه نازل اثنين

فقال ـ ادعُنى إذن ، وسأكون لك أيولاوس حتى تغرب الشمس

قلت ـ سأدعوك ، لا كما يدعو هرقليس أيولاوس ، ولـكن كما كان يفعل أيولاوس لو كان يدعو هرقليس

قال ـ لا فرق بين هذا وذاك ، ولـكن لنأخذ الحذر أولاً لـكي نتقى خطراً

قلت ـ وما ذاك ؟

أجاب ـ خطرٌ أن تتمكن منا كراهةُ المنطق ، فذلك من أسوأ ما قد يصيبنا من أحداث ، فكما أن ثمة أعداء للانسانية وهم من يمقتون البشر ، كذلك هنالك من يكرهون المنطق وهم من يمقتون المثُل ، وكلاهما ناشئٌ من سبب بعينه ، هو الجهل بالعالم ، فتجئ كراهة البشر من الغلو فى الركون إلى عدم الخبرة ، فأنت تثق برجل ، وتظنه مخلصاً تمام الاخلاص . وخيراً وأميناً ، ثم لا يلبث أن يتكشف لك زائفاً خبيثاً ، وهكذا غيره وغيره . فاذا وقع ذلك لانسان مرات عدة ، وبخاصة من جماعة أصدقائه الذين يظنهم أشد الناس إخلاصاً له ، وكثر النزاع بينه وبينهم ، فانه ينتهى آخر الأمر إلى كراهة الناس جميعاً ، ويعتقد أن ليس بين الناس على الاطلاق صاحب خير . أحسبك بغير شك قد لاحظت هذا

قلت ـ نعم

ـ أليس ذلك مدعاة للخزى ؟ وسببه أن الانسان فى اضطراره إلى معاملة سائر الناس ، لا يكون لديه بهم علم ، لأنه لو عرفهم لعرف الأمر على حقيقته ، وذلك أن ذوى الخير قليلون ، وأن ذوى الشر قليلون ، وأن الـكثرة الغالبة هى فيما يقع بين هذين

قلت ـ ماذا تعني ؟

أجاب ـ أعني أنه كما قد نقول عن بالغ الـكبَر وبالغ الصغَر ، بأنه ليس أندر من رجل بالغ الـكبر ، أو رجل بالغ الصغر ، فهذا ينطبق بصفة عامة على النهايات ، سواء أكان ذلك عن الـكبير والصغير ، أم السريع والبطئ ، أم الـكدر والصافى ، أم الأسود والأبيض ، وسواء ضربت أمثلة ناساً أوكلاباً أو أى شئ آخر ، فقليلون هم النهايات ، أما الـكثرة فتتوسط بين النهايات ، أو لم تلاحظ هذا قط ؟

قلت ـ نعم لاحظته

قال ـ ثم ألست ترى أنه لو كان بين الشرور تنافس ، لوجد أن قليلاً جداً منها هو أسبقها فى الشر ؟

قلت ـ نعم ، فذاك أرجح الظن

أجاب : نعم ذاك أرجح الظن ، ولست أعنى أن مَثَلَ الأحاديث فى هذا مثلُ الناس ـ وأراك هاهنا قد حملتنى أن أقول أكثر مما اعتزمت أن أقول ، ولـكن وجه القارنة هو أنه إذا ما آمن رجل ساذج ، لايحذق علوم الـكلام ، بصحة دليل ، وخيل اليه فيما بعد أنه باطل ، سواء أكان باطلاً حقاً أم لم يكن ، ثم تكرر هذا فى غيره وغيره ، فلا تبقى للرجل عقيـدة واحدة ، وينتهى الأمر كما تعلم بكبار المجادلين الى الظن بأنهم قد باتوا

فهى تأمل أن يعتـذر الحبيب اليها . . . يدق التليفون فتسرع اليه ، كما يسرع الغريق الى قارب النجاة ... ياللخيبة ! ليس هو الحبيب الذى يتكلم ، بل هو انسان آخر قد أخطأ الرقم ، يدق التليفون من جديد فتهرع اليه الفتاة ، فاذا المتـكلم سيدة تسأل عن (س) الجزار . . . ! ثم يدق التليفون مرة ثالثة ، فى هـذه المرة هو الحبيب الخاطب المتكلم ، لأن الفتاة اغتبطت فجأة اغتباطاً عظيما كأنها ربحت اليانصيب الارلندى . . الخاطب يسألها عن سبب تأخرها لأنه ظل ينتظرها ساعتين كاملتين فى المقهى ، وكان انتظاره فى مقهى آخر ، إذ أخطأ اسم المـكان ! الفتاة تسرع فى الذهاب اليه ، وقد زال عنها تعبها فى غمضة عين ، إنها تنهب الدرج نهباً أثناء النزول ، فتزلّ قدمها وتسقط سقطة مؤلمة ، ولـكنها لا تحس ألماً ، بل تضحك من أجل هذا ضحكاً متواصلاً . ثم أخذت تفكر مرة أخرى فى تبنيّ الطفلة الفقيرة ، وفى إسعاف الـكلب الجريح ! . .

كرمة ابن هانى حسين شوقى

أحكم بنى الانسان ، لأنهم هم وحدهم الذين أدركوا مافى التدليلات كلها من تزعزع وضعف شامل ، لابل أدركوا ذلك فى الأشياء جميعاً ، وهى تظل صاعدةً هابطةً فى مدّ وجزر لاينقطعان ، كما هى الحال فى تيار يوريبوس

قلت : هذا جد صحيح

أجاب : نعم يا فيدون ، ولشد مايبعث على الأسى أيضاً أن يصادف انسان تدليلاً هنا أو هناك ، فيبدو له أول الأمر أنه حق ، ثم يتكشف له عن باطل ، فبدلاً من أن ينحو باللائمة على نفسه وعلى ما يعوزه من ذكاء ، تراه لحنقه آخر الأمر يغتبط شديد الغبطة فى ازاحة اللوم عن عاتقه ليلقيه على التدليل بصفة عامة ، ويظل بعد ذلك الى الأبد كارهاً لاعناً لكل تدليل ، فتفلت منه حقيقة الوجود وعرفانه ، لو كان ثمت مايسمى بالحقيقة أو اليقين أو القدرة على المعرفة إطلاقاً

قلت : نعم ، إن ذلك ليبعث على الحزن الشديد

قال : فلنحاول إذن بادىء ذى بدء ، أن نسلم فى نفوسنا بالفكرة القائلة إنه لاحقيقة ولا عافية ولا قوة فى أى تدليل على الاطلاق ، ولنعلن قبل ذلك أن ليس فينا نحن الآن عافية وأنه يجب أن نطلق فينا العنصر الانسانى ، ونسعى جهدنا فى اكتساب العافية — فتكسبها أنت وسائر الناس جميعاً من أجل حياتكم المقبلة كلها ، وأما أنا فمن أجل الموت ، فلست أحسُّ الساعةَ أنى مُتَخلِّق بخلق الفيلسوف ، وما أنا فى الرأى إلا مشايع كأفراد السوقة ، وليس يعبأ المتشيع ، حينما يلج فى المخاصمة ، بأوجه الصواب من الموضوع ، بل يحرص على إقناع سامعيه بأقواله وكفى ، وليس بينه وبينى فى اللحظة الراهنة من فرق إلا هذا — بينا هو يحاول إقناع سامعيه بصحة مازعم ، ترانى أحاول إقناع نفسى قبل كل شىء ، فاقناع سامعىّ أمر ثانوى بالنسبة الىّ . ولتنظرن كم عسى أن أفيد بهذا ، فلو كان ما أقوله صحيحاً فما أجمل أن أكون مقتنعاً بالحقيقة ، وأما إن كان لاشىء بعد الموت ، فسأوفر على أصدقائى هذا العويل فيما بقى من حياتى من أجل قصير ، هذا وسترتفع عنى جهالتى ، ولهذا فلن يقع منى ضرر . أى سمياس وسيبيس ، تلك هى الحالة العقلية التى أتناول بها الحوار ، وإنى أطلب اليكما أن تفكرا فى الحقيقة لافى سقراط ؛ فان رأيتما أنى أتكلم حقاً فوافقانى وإلاّ فقاومانى بكل ما وسعكما من جهد ، حتى لا أخدعكما جميعاً كما أخدع نفسى ، وحتى لا أكون لكما كالنحلة ، فأدع فيكما حُمَتى قبل موتى

قال : والآن دعنا نمضى ، ولأتأكد منك قبل كل شىء أن مافى ذهنى يطابق ما كنتَ تقوله ، فإن كنتُ مصيباً فيما أتذكر ، فقد كان لدى سمياس مخاوف وشكوك أن تكون الروح أسبق إلى الفناء ، مادامت فى عبارة عن انسجام ، على الرغم من أنها أشد من الجسد ألوهية وصفاء . وقد بدا سمياس من جهة أخرى أنه يسلم بأن الروح أطول من الجسد بقاء ، ولكنه قال : إن أحداً لا يستطيع أن يعلم إن كان يمكن للروح بعد أن تكون قد أبلت أجساداً عدة ، أن تفنى هى نفسها ، مخلِّفة وراءها آخر أجسادها ، وأن هذا الموت الذى يجلب الدمار للروح لا للجسد ، لأن فعل التخريب لا يفتأ عاملاً فى الجسد أبداً . أليست هذه ، يا سمياس وسيبيس ، هى النقط التى تستوجب منا النظر ؟

فوافق كلاهما على أن ذلك تقرير لرأيهما

فمضى سقراط : وهل تنكران مافى الحوار السابق كله من قوة ، أم تنكران مافى بعضه فقط ؟

فأجابا : بل مافى بعضه فقط

قال : وماذا ارتأيتما فى ذلك الجزء من الحوار الذى ذكرنا فيه أن المعرفة عبارة عن تذكر فحسب ، واستنتجنا منه أن الروح لاشك كانت موجودة فيما سبق ، فى مكان آخر ، قبل أن تنحصر فى الجسد ؟ فقال سيبيس إنه قد تأثر بذلك الجزء من الحوار تأثراً عجيباً ، وأنه لبث فيه راسخ اليقين ، ووافقه سمياس ، وأضاف أنه عن نفسه لم يكد خياله يجيز أن يجىء يوم يرى فيه حول ذلك رأياً مخالفاً لهذا

فاستأنف سقراط : ولكن يجدر بك ، أى صديق الطيبى ، أن ترى رأياً مخالفاً ، لأنك إن أصررت على أن الانسجام مركَّب وعلى أن الروح انسجامٌ نشأ من أوتار رُكِّبت فى أطار الجسد ، فلا ريب أنك لن تجيز لنفسك القول بأن الانسجام سابق للعناصر التى يتألف منها الانسجام[1]

— كلا يا سقراط فذلك مستحيل

(يتبع)

زكى نجيب محمود

(١) قال سمياس لسقراط : إنه مقتنع بمذهب التذكر الذى يتضمن وجود الروح قبل حلولها فى الجسد ، فيجيبه سقراط : إن هذا المذهب لا يتفق مع عقيدته بأن الروح عبارة عن انسجام بين أعضاء الجسد ، لأنه يستحيل أن يوجد انسجام الأعضاء قبل وجود الاعضاء نفسها ، وبالتالى يستحيل وجود الروح قبل وجود الجسد

في مجمع الرذائل

للأستاذ فخري أبو السعود

عقدَ الرذائلُ في خلاء مجمعاً — في مهمهٍ نائي المزار يباب
يَنثُرْنَ كلَّ حديثِ سوءٍ مُجتوًى — بينَ الدِّنانِ ومُترَعِ الأكواب
وتتابعت ثمَّ الرذائلُ كلها — يَخطُبْنَ في لَسَنٍ وفي إطناب
متفاخراتٍ بالذي رَتَّقْنَ من — نعماء أو قطَّعن من أسباب
وتدفَّقَ الحسدُ المفوَّه واصفاً — مَسْراه في الأكباد والألباب
وتلاهُ ثمَّتَ الاغتيابُ يَقُصُّ ما — يمشي به من فتنةٍ وتَباب
حتى إذا سكت الجميع وقرَّ ما — في الحفل من جدلٍ ومن تصخاب
نَدَّ حُبُّ النفسِ ثمَّتَ قائماً — نصرَ الصِّبا مُتألِّقَ الجلباب
تبسما متمكناً من نفسه — فِعْلَ العريق المجدِ والأحساب
دعا: ضُيوفي! قد سمعتُ خطابكم — فتسمَّعوا أنتم لفَصْلِ خطابي
نا ربُّ هذا الخَلْقِ دانوا كلهم — لِعُلايَ قبلَ عِبادةِ الأرباب
أنا قهرتُ عدوَّيَ الإيثارَ إن — ناداهمُ ولَّوا بغير جواب
إذا دعوتُهمُ فرَهْنُ إشارتي — وهمُ على ما رُمْتُهم أحزابي
ا مُفسِدُ الوُدِّ الذي زعموه من — قِدَمٍ فكلُّ الود محض كِذاب
مَّا رأيتُ وثيقَ ودٍّ بينهم — أنفذتُ سهمي فيه أو نُشّابي
نبتَّ أو وهَنتْ عُراهُ أو اغتدى — زيفاً من الأقوال والألقاب
ن ذاك يحسَبُهم جميعاً مَن رأى — وقلوبُهم شتَّى هوًى وطِلاب
يُرى الودادُ أقلَّ ما احتفلوا به — من طِيبِ ذُخْرٍ أو كريمِ رغاب
بأخذوا في العيش أو يُعطُوا سوى — ما دوَّنوا في دفترٍ وحسابِ
أنا المغالي في النفوسِ بقَدْرِها — حتى تُصَغِّرَ مدحَ كلِّ محابي
أنا المبرِّرُ للخطايا عِندَها — فترى صواباً كلَّ غيرِ صواب
أنا مشوِّهٌ كلَّ فضلٍ ظاهرٍ — للغير وهو أحقُّ بالإعجاب
أنا محرِّضُ من تجاوزَ حقَّه — وبغى على القُرناء والأصحاب
كذاكَ أضرمُها عواناً بينهم — يَصْلَوْنها حِمَماً وبرحَ عذاب
إذا أشاءُ أبثُّ فيهم منكمُ — رسلي وأنشر بينهم أذنابي
أمشي بحقدٍ بينهم وضغينةٍ — وأُوَكِّلُ المغتابَ بالمغتاب
ويكون لي الكذبُ المموَّهُ برقعاً — ويكون من زيفِ النفاقِ خضابي
وأهيج بالحسد الجوانحَ والحشا — فتعجُّ بالأوضارِ والأوصاب
أنتم جنودي لا عدمتُ ولاءكم — أبداً على الأجيال والأحقاب
فاحسُوا الشرابَ لقد رضيتُ بلاءكم — لكمُ ثنائي كله وثوابي

فخري أبو السعود

أمراض الحضارة

ليت الذي بجليل الفكر حققها — يشاهد الآن « فقد العز في الحضر »(1)
«جيل الحضارة» هذا فانظر معي — ألِلبطولة عند القوم من أثر ؟
أم للمودة والاخلاص منزلة — أم للمروءة والاخلاص من خطر ؟
تقدم العلم فانحطت به قيم — كانت هي العرف بين الله والبشر
مالوا عن الدين لما شك عالمهم — والشك أدعى لأخذ الأمر بالحذر
فأصبحوا هملاً لا يفقهون لما — في الدين من وازع والعلم من بصر
وأولعوا بسخيف من عوائدهم — عجزاً عن الجد في الابداع والظفر
ظواهر الأمر تكفيهم وتشغلهم — عن النفوذ وراء السطح والصور
فضيلة لم تُذع ليست لصاحبها — فاحرص على النشر دون الصدق في الخبر
يا من يريد بجهد صامت شرفاً — أقصرْ ودع عنك هذا الوهم واعتذر !
« أجاعل أنت بيقوراً مسلعة — وسيلة لك بين الله والمطر ؟(2) »

* * *

ويح البرية من علم يضيء لها — جوانب الكون دون النفس والفكر

(....)

(١) إشارة لأبي العلاء المعري في قوله من قصيدة :
الموقدون بنجد نار بادية — لا يحضرون وفقد العز في الحضر
(٢) لشاعر لا أذكره

نعيم الحب

بقلم حلمى اللحام

عضو المجمع الأدبى

هاجَتْ بِىَ الذِّكْرَى شُجُونَ الهوَى
وأضرمَتْ فى الصدر نارَ الْجَوَى

تلفَّتَ القلبُ إلى أمسِهِ   لهفانَ مِمَّا جَشَّمَتْهُ النَّوَى
أيْنَ عُهودٌ كالرُّؤَى لذَّةً   وظلُّ عَيْش كَرَفيفِ الْحُلَى
وأيْنَ حُلْمٌ سائغٌ وِرْدُهُ   كَسَلْسَلِ الْخُلْدِ إذا ما جَرَى
يا نِعْمَةَ النِّسْيَانِ جُودِى عَلَى   قلْبِ رماهُ اليأْسُ حتى ذَوَى
وَهَدْهِدِى بالسِّحْرِ أحزانَهُ   وَأَرْقِدِى فيه طُيُوفَ الأذَى
أوَّاهُ كم يَهْفُو إلى رَقْدَةٍ   فى ظِلِّكِ الْوَارِفِ هَفْوَ الصِّبا

* * *

إنْ سَاوَرَتْنِى سِنَةٌ حُلْوَةٌ   نَعِمْتُ باللَّثْمِ وطِيبِ اللِّقَا
وَإنْ تَغِبْ أشْقَ ، فياليْتَنِى   أقضِى حياتى فى ظِلال الكَرَى
يا طَيْفَهَا كم زُرْتَنِى مُنْعِماً   فى هَدْأَةِ الليلِ وسَجْوِ الدُّجى
وَطِرْتَ بالرُّوحِ إلى عالَمٍ   مُزْدَهِرِ الأرْجاءِ ، ضَاحِى الذُّرَى
يُرَفْرِفُ الحُبُّ على أُفْقِهِ   وَيَنْعَشُ المحزُونَ فيه الرِّضَا

* * *

مُضْناكِ يا رَيْحانَتِى يائسٌ   طاحَتْ أغانيهِ وغابَ الصَّدَى
إنْ هَاجَهُ الشَّوْقُ بَكَى حَظَّهُ   وعَادَهُ الماضِى فأَغْضَى أسًى
آضتْ منَ الهِجْرَانِ جنَّاتُهُ   صحْرَاءَ لا يَضْحَكُ فيها الْجَنَى
فَنَضَّرِيها تَأْتَلِقْ بَهْجَةً   وتَكْتَنِفْها نُعْمَيَاتُ الدُّنا

* * *

أنْتِ سَنَا الرَّوْضِ ورَيْحانُهُ   وفتنَةُ الزَّهْرِ وعِطْرُ الشَّذَا
منْكِ اسْتَمَدَّ القلبُ أَلْحَانَهُ   واسْتَلْهَمَ الشِّعْرَ وذاقَ الهوَى
يَا حُسْنَ ذِكْرَاكِ وَيَا طِيبَهَا   قُوتاً لِرُوحى إنْ عَرَاها الْوَنَى

لم يَبْقَ فى الكأسِ سِوَى جُرْعَةٍ
والنفسُ ظَمْأَى ! أَفَتُرْوِى الصَّدَى ؟

مَنَّيْتِنِى بالوَعْدِ ، لكِنَّنِى   مِثْلُ فَرَاشٍ حامَ حَوْلَ السَّنَا
تَرَكْتِنِى فى لوْعَةٍ مُرَّةٍ   مُسْتَعْبِرَ الْعَيْنَيْنِ ، جَمَّ الضَّنَى
لاالطيْرُ يُصْبِينِى تَرْجِيعُهُ   فى السَّحَرِ النَّدْيَانِ إمَّا شَدَا
ولا الأغارِيدُ تَذُودُ الأسَى   عن مُهْجَتِى الحَرَّى وتَنْفِى الشَّجَا

* * *

هــذا الصِّبا المِمْرَاحُ أيامُه   رَفَّافةٌ ، حالِيَةٌ بالمُنَى
والمُجْتَنَى دانٍ فهيَّا نَهِمْ   مثلَ طيورِ الفجرِ بينَ الرُّبا
ونَحْيَ كالزَّهرِ أليفَىْ هوًى   فى رَوْضَةٍ وَشَّى رُباها الحَيا
ونقطفِ اللَّذاتِ مَنضورةً   من قبلِ أنْ يَذْوِىَ عودُ الصِّبا
عيناكِ سِرُّ الوَحْيِ فى خاطِرِى   وثَغْرُكِ المَعْسولُ كأسُ الطِّلى
فأرْشِفِينى نَهْلَةً عذْبَةً   تَغْمُرْ جَنَانِى بِسَنِىِّ الرُّؤَى
وألْهِمِينى نَغَماً فاتِناً   أنْسَ بهِ بَرْحَ الأسَى والبُكا

* * *

إذا انتَشَى قلبِىَ من حبِّهِ   فلا صَحَا من سُكْرِهِ لا صَحَا
الحبُّ رُوحُ اللهِ فى خلقِهِ   ونَفْحَةُ الوَحيِ ، ونورُ الهُدَى
جادتْ قِفارَ الكَوْنِ أنداؤُهُ   فبَشَّتِ الدُّنيا ، وغضَّ الثرَى
لولاهُ ما غَرَّدَ فى أيكةٍ   طيرٌ ولا غَنَّى حَمَامُ الضُّحَى
ولا أراقَ الوَرْدُ أنفاسَه   فى الجوِّ رَيًّا بِرُضابِ النَّدَى
آمنْتُ بالحبِّ وآلامِهِ   كلُّ نعيمٍ ما عداهُ سُدًى

(دمشق)   حلمى اللحام

القبـــلة

بقـــلم الياس فيصل

أنتِ سِلكٌ مكهرَبٌ بشعاعِ الْ   حبِّ ينبث منه همسُ الفؤادِ
فيكِ من نكهةِ الشعورِ حميًّا   سحرُها المستطابُ خافٍ وبادِ
أنت معنى ، بيانه الفذ يبرى   من جمالِ المراحِ أفقاً جديدا
أنتِ أنشودةٌ تزفُّ ثنايا   ها رجاءً مذهَّبا منشودا
وسواءٌ ألمت مسرعةً ذا   ت نفورٍ أو ذبتِ بين الشفاه
فَفُتونُ الفتونِ كالنور يغشا   كِ بلونٍ من التمتع زاهى
نزوة الشوق تسكبين عليها   مايوارى لهيبها المنثورا
والحنين الملحّ فى القلب يغدو   حين تهفين لذةً وحبورا
ليس ينسى النبوغ مالكِ من فضـ   ـل ولن تغفل العلى عن جميلِكْ
كم فتى سجّل الخلود اسمه ما   كان لولا جهوده فى سبيلِكْ
ياخيالا من اللذاذة فيه   قبس الذكرى دائم الايماض
ليتَ محبوبتى تروِّى غليلى   مرة من معينكِ الفياضِ

عاصمة الجمهورية الفضية   الياس قنصل

القصص

من أساطير الأغريق

يو
أو
منشأ إيزيس
للأستاذ دريني خشبة

كان لأحد أرباب الأنهار التي تنحدر من شواهق الأولمب ابنةٌ بارعة الجمال فتّانة ، حلوةٌ كأنها قبلة على فم حبيب ، رقيقةٌ كأنها زنبقةٌ على غصن رطيب

وكانت تخطر كما تخطر نسمةٌ معطرةٌ أفلتت من الجنة لتملأ القلوب حباً ، ولتشيع في الحب سعادة ، ولترف في قيظ الحياة فتُرَوِّح على المكدودين المحزونين

وكانت هذه الفتاة (يو) ، مفتتنةً بجمال الطبيعة ، مشغوفةً بسحرها الأخاذ ، تود لو تستطيع فتعيش ملءَ السهل والجبل ، أو تقدر فتنسجم والحياة الدائبة في الغابة ، أو تكون روحاً شفافاً يرف في زرقة السماء ، ويمتزج بالظلال والأفياء

ولم تكن عاشقة ، ولكنها كانت حين تجلس على الصخرة المشرفة على البحر تعبد القمر في هَدْأةٍ من الليل ، تهيج حب الطبيعة في نفسها ، فتبكي ، وتبكي ، ولا يقطع عليها بكاءها إلا خرير الغُدران المترقرقة التي تَنْسرِب في الأدغال . وكانت عبادة الطبيعة تقطعها عن أترابها من عرائس الماء ، وصاحباتها من بنات الغاب ، فكن إذا تَفَقَّدْنها ، توزَّعن في مهاوي الجبل ، وتفرَّقن في مُنْبسطِ السفح ، وتنادين بها ههنا وههنا ، حتى يجدنها آخر الأمر مستغرقة بين يدي قمرها المعبود ، تناجي البحر المصطخب ، وتكلم النجم المضطرب

ونزل زيوس يوماً من ذروة الأولمب التي هي أول مراقي السماء ، يرتاد جنات الأرض في مملكة جدته (جي) ، وما كاد يوغل في إحدى جنبات الجبل حتى لقي يو ، تلك الفتاة الأولمبية الساحرة ، واقفة على الصخرة تستمتع بجمال الشروق في صبيحة من أوليات الربيع . . . وكانت السماء ما تزال موشاة بسحائب خفيفة من بقايا الشتاء ، وآراد[1] ذُكاء تنتشر خلالها فتفضّض أذيالها ، وتذهب أوساطها ، وتكسب الأفق رونقاً زاهياً خلاباً

وسُحر زيوس ، وهو كبير الآلهة ، بجمال العروس التي هي من خلقه ، وابنة أحد أتباعه ، وأحس بعطف يغمر قلبه العظيم من أجلها ، وشعر كأنه ظمئٌ إلى هذا الجمال الفتان المشرق ، الذي كسف في عينيه جمال زوجاته جميعاً ، وفيهن حيرا وديون ولاتونا[2]

ووقف الإله المشدوه يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، وسُمِّر مكانه ، وهو سيد الآلهة ، يعبد عَبْدته الصغيرة التي أبدعتها يداه . . . وهو لا يدري !

وعول على اغتنام الفرصة ، وأقسم ليملأن وطابه استمتاعاً لا يضيره ألا يكون بريئاً ، ولذاذة ليس به أن تكون نقية خالصة . . . « أنا سيد أرباب الأولمب ، وكل ما بين لابَتَيكِ أيتها الأرض لي ، وقد اشتهيت هذه الجميلة الخبيثة فمن الذي يجرؤ أن يحجزها عني أو يمنعها مني ! . . . ؟ »

ثم بدا له ألا يزعجها بالظهور لها في سماه الحقيقية فينخلع قلبها وتطير نفسها ، لأنها ستكون منه تلقاء إله ، فتحول في لمحة الى فتى يافع ينهل الشباب في برديه ، ويترقرق الصبى في أعطافه ، وتشع عيناه صبوة وفتوناً . وتقدم اليها فحياها تحية كلها صفاء وكلها دعة ، فحيت بأحسن منها ، ولقيته أرضى لقاء . . .

وجلس يحدثها وتحدثه ، وكان الإله المحتال يمزج أحاديثه بالسحر ، ويزخرف صوته بالموسيقى ، ويعسل ابتساماته بالمحبة ،

---

(١) أشعة الشمس (٢) حيرا أولى زوجات زيوس وديون هي أم أفروديت (فينوس) ولاتونا هي أم أبوللو وديانا (فوبوس وأرتميس) ولزيوس أزواج أخرى سنعرف بهن في كلمة عن الثيوجونيه اليونانية

ويطلق فى نظراته كل ما وسعه من شياطين الهوى ، وكان ماينفك يقترب منها ويقترب ، حتى لامس ذراعه ذراعها ، فأخذ يدها الصغيرة البضة بين كفيه الحارتين ، وطفق يضغط قليلاً قليلاً ...

وصمتا هنيهة . . . ثم فرغ طور اللسان ، وبدأت نوبة العين ، وأخذا فى رشفات وقُبل . . .

وعاد أدراجه الى الأولمب ، ولما يزر من أطراف الأرض غير هذه الناحية الحبيبة التى سعد فيها لحظة بيو ، وظل منذ ذلك اليوم يتردد إليها فيلقاها على أنها كأسه الروية التى تبترد بها غلته ، وتلقاه على أنه حبيب أسعدتها ڤينوس به ، وما درت قط أنه كبير الآلهة ورب الأرباب ...

وكان يتحرّق إلى لقائها ، وكانت تتسلى عنه بقمرها الفضى ، فاذا سعدت منه بزورة ، اندغمت عبادتها للطبيعة فى عبادتها له ، وأذهلتها نشوة الحب عن الدنيا وما فيها !

وأحست حيرا ببعض ما يشغله ، ولحظت أنه صادف عنها ، فأيقنت أن لا بد من أمر ، وأن فى الأمر أنثى ؛ وأن فى الأنثى صبابةً وغراماً ؛ فبثت العيون ورصدت الرقباء ، حتى وقفت من شأنه على كل شىء !

ولشد مادارت الدنيا بحيرا ! لقد ودت أن تقلب جبلاً على رأس يو ! ! وأقسمت أن تبغتهما إذ يتراشفان كؤوس الهوى دِهاقا ، لكيلا يكون لبعلها على خيانته حجة ، ولكيلا يكون له من بعدها برهان

***

وذر قرن الشمس فى صبيحة ضاحكة ، فذهب زيوس يشفى مافى قلبه من برْحٍ عند يو ، وكانت حيرا قد أوهمته أنها ستقضى سحابة يومها هذا عند واحدةٍ بعينها من صديقاتها ، وزاد ذلك فى ابتهاج الاله ، وضاعف انشراحه ، واعتزم أن يستمتع طيلة يومه هو الآخر لدى يو

وإنه لفى غَمْرِ النشوة وإبان السكْرة وعنفوان المرح ، إذا به يلمح حيرا مقبلة ! . . .

وكانت ما تزال فى أول الأفق ، فأيقن أنها مكيدة دبرتها لتفجأه مع يو ، وأنها قد كشفت من سره ما بالغ فى كتمانه . فتناول أذن صاحبته فنفث فيها نفثة سحرتها فى أقل من لمحة بقرة بيضاء ناعمة ، ثم شرع يلاطفها ويمسح عنقها . . .

ووصلت حيرا ، ولم تنطل عليها حيلة الاله ، وما شكّت قط أن البقرة الواقفة تبحث بأنفها فى الحشيش الأخضر كأنها تنشد الكلأ ، إن هى إلا يو . . ! عدوتها اللدود ! !

فبسمت لزوجها بسمة كلها دلٌ وكلها فُتون ، وسألته ، وهو يحاول منها قبلةً ، أن يمنحها هذه البقرة الخصبة التى . . : « لم أر فى حياتى أرشق منها ولا أجمل . . لقد أحببتها ، وهى من غير ريب ، حين تكبر ، ستعطينا أجود اللبن وأسلمه ، وسيكون لبنها خير غذاء لولدَينا الحبيبين إيرس وهيفيستوس ولطفلتنا الجميلة هيب (١) . . . »

وارتبك زيوس ، ولم ير بدًّا من إجابة زوجه إلى ما تريد . .

ومضت حيرا بالبقرة فرصدت لها أحد اتباعها الأقوياء : آرجس الهائل ، ذا مائة العين التى لا تنام ! ناطته بها ، وأمرته ألا يغفل عنها ... « وإلا فالويل لك يا آرجس إذا هربت منك ، أو احتال أحد عليك فأهلك عنها . . . إذن يحل عليك غضبى ، وأسحقك سحقاً . . . »

وظل الحارس الساهر يرعى يو ، ويرقب كل حركة من حركاتها ، حتى فزعت المسكينة من سوء منقلبها ، وصبت اللعنات على هذا الحبيب الشيطان الذى ردها بعد جمالها إلى هذا الخلق الشائه ، وصيرها إلى ذاك المصير المؤلم . لقد كانت تتحين الفرصة لتستطيع أن تفلت من رقابته الثقيلة ، ولكن كيف ؟ إن الخبيث كان إذا أضناه السُّهد وأعياه السهر ، ينام بخمسين عيناً ، ويقدح الشرر بخمسين أخرى ! ! فاذا استيقظت هذه نامت تلك ، وهكذا دواليك ، حتى تشرق الشمس فتصحو المائة كلها !

وكانت تقابل صواحبها عرائس البحر كلما مررن بها ، فتود لو تستطيع مخاطبة إحداهن ، ولكن . . . هيهات ! لقد كانت . . مو . . مو . . تنطلق من فمها الكبير مالئة أشداقها ، فتزعج أيما ازعاج !

ومضت أيام . . . وأيام . . .

ثم لقيت أباها مرة ، فنظرت اليه وهو ينكرها ، ونظرت ، ولكنه لم يستطع أن يفسر نظراتها ، فذرفت أحر الدموع وأدمى العبرات ! وحاولت أن تلفته إلى أنها ابنته ، فلم يأبه لها !

(١) إيرس هو مارس الرومانى إله الحرب ، وهيفيستوس هو ڤلكان الرومانى إله النار ، وهيب هى ربة الشباب وندمانة الشراب ، وحاملة الكؤوس فوق الأولمب

وبدا لها أن تخط على ثرى الشاطئ حكايتها ، وما كادت تفعل حتى فطن أبوها لما تريد ، فلما قرأ مارقشته فى أديم الرمل ، أجهش المسكين وسكب دموع الحنان ، ثم عانقها عناقاً طويلاً ! ولكنه أسقط فى يديه ! إذ ماذا يستطيع رب نهر صغير أن يصنع فى سحر الاله الأكبر ! ؟

ولما شهد آرجس ما كان من بكاء البقرة ، ثم بكاء رب النهر وعناقه إياها ، تأثر تأثراً بادياً .. ولو لم يفقه من كل ما كان شيئاً . ثم ذكر وعيد حيرا ، فانطلق بالمسكينة إلى مكان سحيق ، وثمة ، تخير يفاعاً عالياً أقام عليه ليشرف منه على كل شئ ، فلا يخشى على بقرته رهقاً ، ولا تستطيع هى مهرباً

***

وذكر زيوس فتاته المسكينة التى كان حبه إياها سبب تعسها وشقائها ، وذكر تلك الأويقات الحلوة التى يسرت له فيها أصفى لحظات السعادة ، التى لم يتيسر له مثلها فى مملكة الأولب على ما جمعت من صنوف الرفاهة والنعيم ، فثارت فى قلبه عوامل الرحمة ، وتحركت فى صميمه تلك الشفقة الالهية التى اتصف بها فى قديم الآباد

وفكر وفكر . . . ثم استدعى من فوره ابنه من زوجته مايا ، البطل الطيار المشهور ، هرمز ، وأمره بالتوجه إلى حيث آرجس فيحتال عليه ويقتله

ومرق هرمز كالسهم إلى حيث الأكمة التى جلس فوقها آرجس ، فألفاه يحرس البقرة حراسة شديدة منكرة ؛ وكانت القمراء تغمر السهل والغاب والجبل ، وكان البدر يتنقل فى دارات السماء ، والرياح تهب سجسجاً ، والبلابل تغرد فوق أغصان التفاح فتطرب وتشجى ؛ وكأن سنة من النوم خفيفة رقصت فى خمسين من عيون آرجس فأطبقت قليلاً ، ولكن ما برحت الخمسون الأخرى تنافس الثريا ببريقها ؛ وكانت البقرة ملقاة على الثرى المندى من الاعياء ، فلما شهدت هرمز لم تحفل به

ولكن ما هذه الموسيقى الحنون ! !

ومن العازف فى هدأة الليل !

وما للنجوم تضطرب هكذا من الطرب ؟

آه . لقد تحول هرمز الصناع إلى شاب ذى قوة وذى فتوة وذى جمال ، وبدا فى شكل راع من رعاة الضأن ، وجلس القرفصاء على صخرة مقابلة لآرجس ، ثم انبرى يعزف على يراعه المثقب الذى اتخذه من قصب البرية الفسيحة التى أقبل منها ، وانبطحت فى السفح شاؤه ونعمه [1] تغط فى شبه نوم عميق ...

واستيقظت الخمسون الأخرى من عيون آرجس ، ودب النشاط فى هيكله الضخم مما سمع من حسن التوقيع وروعة اللحن ، فانتفض انتفاضة كان بها عند هرمز – الراعى الفتى – فسلم عليه وصافحه . وجلس بين يديه كالنمر يسمع ويطرب وينتشى ، ثم أخذ معه فى حديث طويل عن موسيقاه العذبة وألحانه الرقيقة ، ثم استطرد فسأله عن نايه ، م صنعه ، أو من ذا الذى وهبه له ؟ . . .

فقال هرمز : « فى إحدى الغابات ذات الأيك البالغ عنان السماء ، والدوح المنتشر فى الأرجاء ، كانت تعيش سيرينكس عروس الماء المرحة ، ذات السيقان الناعمة ، والجسم الأبيض الخصب الجميل . وكانت تهوى الرياضة وتقبل عليها ، وتؤثر منها الجرى والوثب والقفز ، والتعلق بأطراف الشجر ، ثم السباحة . وكانت تجرى فتسبق الريح ، وتعدو فيتعثر الظليم فى آثارها ، ولا تدرك الصافنات غبارها . وطالما طلبت إليها آلهة الغاب مسابقتها ، فكانت تأذن لهم فيجرون قبلها مرحلة ، ثم تنطلق فتلحق بهم ، وتسبقهم بمراحل ! . . . »

وتثاءب هرمز الخبيث وقال : « ومن طريف ما حدث لها ، أن بان المظيم ، رب الرعاة وإله المروج وسيد الغاب ، ومعبود الناس فى أركاديا ، لمحها يوما تعدو وكأنها زوبعة ، فتبعها ؛ ولكنها شأته [2] وأجهدته ! مع ما هو معروف عنه من السبق والتفوق فى الجرى ، وحاول أن يلحق بها ، فضاعف سرعته وأطال خطواته ولكن هيهات ! . . . والتفتت سيرينكس فرأته يطوى أديم الأرض من خلفها . ففزعت أيما فزع ، وهالها منظره الشائه الغريب . . . فسيقانه العنزية الأربع ، وأذناه البهيمية الشاخصة ، وجسمه المفتول ذو العضل ، ووجهه الواسع العريض . . كل ذلك بعث فى قلبها الذعر ، وهاج فى نفسها الرعب ، حتى كادت تذهب شعاعا . »

(١) الشاء جمع شاه والنعم يطلق على الأبل
(٢) شأته سبقته

وتثاءب هرمز ثانية وثالثة ، ثم قال : « . . واعترضها نهر عظيم فصرخت فى أخواتها عرائس الماء تستغيث بهن ، وتطلب اليهن النجدة ، فما أذهل بان عن نفسه إلا أن رأى طائفة من هذه العرائس تبرز من الماء فجأة فتجذب سيرينكس حتى تغيبها فى اليم ، ثم ما أذهله أيضاً إلا أن يرى قصبات رقيقة ، ذوات أرياش صفيقة ، تنمو فى الموضع من الماء الذى غيبت فيه سيرينكس ! !

ووقف بان مشدوه اللب ، ذاهل الفكر ، يحملق فى النهر الذى طوى منية القلب ، وهوية النفس ، ثم انثنى فنزع القصبات النامية ، وراح يصنع منهـا نايا حلو النغم رقيق اللحن ، حنون الجرس

ولقيته مرة فى روضة مونقة ، منضورة منسقة ، وكان بان يجلس على رابية بهـا معشوشبة ، عازفا على يراعه ، فطربت لموسيقاه طربا شديداً ؛ ودلفت إليه ، فرجوته أن يهب الناى لى ، فتبسم قائلا . « إليك يا بنى أكرمَ القنى وأعز الذكريات ... »

وشهدت عبرات تنطلق من مقلتيه ، حاول أن يخفيها عنى ...

وكان هرمز وهو يأتى هذه الأقصوصة التى اخترعها اختراعا ، يحاول أن يمطها مطا ، ويزيد فى ثناياها حواشى مملة ، ويزخرفها بتعليقات لا غناء فيها . وكان يتثاءب ويتثاءب ، وكانت الكلمات تساقط من فمه كأنها مشدودة بسلسلة من حديد ، حتى تثاءب آرجس هو الآخر ، وغلبه نعاس شديد أغلق عيونه كلها . وابتهج هرمز الخبيث لذلك ، وجعل يروح على وجه آرجس ، حتى انطلق الشخير من أنفه الكبير يجاوب أصداءه الضفادع ... !

وهنا ... امتشق هرمز جرازه المرهف وأهوى به على عنقه الطويل ، فانفصل الرأس عن البدن ، وغادرهما معفرين بالتراب ، وعاد أدراجه إلى الأولب يحمل إلى والده نبأ المعركة ...

وحزنت حيرا على خادمها أمض الحزن وأشده ، وذهبت بنفسها فحملت رأسه إلى مخدعهـا فى قصر الأولب الكبير ، وطفقت تسمل العيون عيناً عيناً وتركبها فى ريش طاووسها (١) الجميل لتظل إلى الأبد رمز حبها له ، ووفائها لذكراه ... ثم آلت لتسلطن على يو — البقرة المسكينة — ذبابة صفراء من ذباب الأبالسة ، تقرصها وتجعل من حياتها نكالا ، حتى ضجت المخلوقة التعسة ورفعت أكف الضراعة تستمطر الرحمة من زيوس ... كبير الآلهة ، ورب الأرباب : « يا إلـهى العظيم الرحيم ! يا أبا الآلهة ، وابن الآلهة ! أتوسل اليك بأبنائك الكرام الرحماء ! أدركنى يا أبا زجريوس ! اغفر لى زلتى حين أحببت هذا الفتى الجميل وأحبنى ! إن كنت قد صنعت بى ماصنعت انتقاما ، فحسبك ماحل بى من عـذاب الهون ! لن أزل يا إلـهى إذا غفرت لى ورفعت عنى وزر غضبك ! اقبل يارب الأولب صلاتى واجعلها شفيعى إليك ! أنا ... يو المسكينة .. كنت أعبد ابنتك أرتميس ربة القمر ، فكنت أنزوى عن العالم ؛ وألبث وحدى بين يدى قمرى الحبيب ، أصلى لك ولابنتك المعبودة ، فى هدأة الليل ، وسكون السحر ، فما هو إلا أن قطع على هذا الفتى صلاتى ، وهو من خلقك ، وجماله الفتان آية من آياتك ، فاذا سحرنى وأذهلنى عن عبادتى ، فانى أستأهل كل هذا الذى أنا فيه!... يا إلـهى اغفرلى ، فقد وسع غفرانك كل شىء ... ! »

ويستجيب الالـه لهذه الصلاة الحارة الخالصة ، فينطلق إلى حيرا ، حيث يجدها مكبة على رأس آرجس تسمل عيونه ، فيواسيها ويسليها ، ثم يرجوها أن ترحم يو ، وأن تخفف عنها العذاب ، وهو لقاء هذا يعطيها كل المواثيق ألا يصل أسبابه بأسبابها مرة أخرى . فترق حيرا ، وتتفجر الرحمة لأول عهدها بها ، فى قلبها ؛ وترسل من يرفع الذبابة عن البقرة وتأذن لزيوس فيعيدها إلى صورتها الأولى ... الصورة القديمة المحبوبة ...! ولكنها تشترط عليه أن يرسل من يذهب بها إلى أقصى أطراف الأرض ، حتى تطمئن عليه ... وعلى قلبه المتصابى !... من حبها

ويأمر زيوس بعض أتباعه فيحتمل يو إلى ... ... ضفاف النيل ! ! وتخرج من الصحراء فيلقاها المصريون ؛ فتبهرهم بجمالها الرائع ، وحسنها الوضاء ، ومفاتنها البارعة ، ثم يجتمعون على عبادتها ، ويقيمونها مليكة عليهم ، ويسمونها : « إيزيس »

وتمر الأيام ...

فيتزوجها كبير آلهة مصر ، آزوريس ، وتلد له ابنه حوريس ! (١)

دريني خشبة

(١) كان الأغريق يرمزون لحيرا بالطاووس والكوكو وكانوا يحبونها حبا جما لأنها آثرتهم بعطفها وضحت فى سبيلهم بحب زوجها وثقته فيها — واسمها الرومانى هو چونو

(١) فى هذا تناقض لما هو معروف فى الميثولوجية المصرية ، ولا نعرف منشأ هذه الاسطورة التى تمتاز من كل أساطير اليونان بما أثبتته من علاقات مصر القديمة بهيلاس

البريد الأدبي

ملك الصحافة

توفى أخيراً قطب من أقطاب الصحافة هو أدولف أوكس صاحب جريدة « نيويورك تيمس » أعظم الصحف الأمريكية ، وكانت حياة أوكس كقصة روائية ، فقد بدأ الحياة بائع صحف متجول ، ثم غدا بعزمه وذكائه ومثابرته أعظم صحفى فى العالم الجديد وصاحب أعظم صحيفة فيه . وقد ولد أوكس فى سنسناتى من أعمال أوهيو فى سنة ١٨٥٨ ؛ وبدأ حياته العملية فى نوكسفيل يبيع الصحف ويدرس أعمالا مطبعية وصحفية صغيرة ، واستمر يعمل كصبى بائع فى الطريق ، وصبى فى المطبعة حتى سنة ١٨٧٧ وفى ذلك العام عمل صفافاً فى مطبعة صحفية . ثم سمت به همته بسرعة ؛ فأصدر فى العام التالى جريدة اسمها « شاتانوجا تيمس » استمرت ملكه طول حياته ، وتقدم أوكس بسرعة فى الصحافة وتقدمت جريدته حتى غدت صحيفة أقليمية هامة تتمتع بقسط لا بأس به من النفوذ والتقدير . وفى سنة ١٨٩٦ ، أثار أوكس دهشة العالم الصحفى باقدامه على شراء جريدة « نيويورك تيمس » وكانت الصحيفة الكبرى قد توالت عليها الأزمات والصعاب حتى كادت تتوقف عن الصدور ؛ واضطر أصحابها إلى عرضها للبيع ، فتقدم أوكس لشرائها ، ودفع جزءاً فقط من الثمن . وكانت الدوائر الصحفية تتوقع الفشل لأوكس ؛ لأنه لم يعمل من قبل إلا فى صحيفة محلية ؛ ولكن أوكس أبدى فى إحياء صحيفته الكبرى همة وكفايات مدهشة ، فلم يمض سوى قليل حتى عادت الصحيفة إلى سابق قوتها ؛ واختار أوكس لها اللون المحافظ مع اعتدال فى اللهجة ، ومع التزام الجد والوقار ، والرصانة ، ومجانبة الصيغ والحملات المثيرة ، وكان شعاره الذى يطبع إلى جانب العنوان فى كل عدد « كل الأخبار صالحة للنشر » ، وهو شعار مازالت تحمله الصحيفة ، حتى اليوم ، واستطاع أوكس خلال أعوام قلائل أن يسدد جميع الثمن وأن يستأثر بامتلاك الصحيفة الكبرى . وما زال أوكس يعمل حتى غدت « النيويورك تيمس » أعظم صحيفة فى العالم الجديد ، سواء فى حجمها ، أو تحريرها ومادتها ، أو تصويرها وطباعتها ؛ وأصدر أوكس لصحيفته ملحقاً أسبوعياً (ملحق الأحد) غدا أعجوبة فى الصحافة العالمية ، حيث يصدر مصوراً فى ١٨٠ صفحة كبيرة ، وملحقاً به قسم خاص بالنقد الأدبى ، والنيويورك تيمس أيضاً من أقدم الصحف الأمريكية ؛ فقد بدأ صدورها سنة ١٨٥١ فى مدينة نيويورك وكادت أكثر من مرة تختفى من الميدان ؛ ولكن أوكس أسبغ عليها حياة جديدة ؛ وهى الآن من أعظم صحف العالم ، ولها أكبر مجموعة من المراسلين الخارجيين فى سائر العواصم ، وقلما تجاريها أية صحيفة كبرى فى أنبائها أو موادها . ومع أن انتشارها لا يعدو نصف مليون نسخة فى اليوم ، فانها تتمتع بأكبر نفوذ فى عالم السياسة والفكر والمال

العلامة المكتشف سفين هيدين

عاد أخيراً من مجاهل الصين الوسطى والغربية الرحالة المكتشف والعلامة الباحث السويدى سفين هيدين الى ستوكهلم مسقط رأسه ، فاحتفلت به الهيئات العلمية احتفالاً شائقاً ، وقدمت اليه الحكومة النمساوية على يد سفيرها فى ستوكهلم وسام الشرف العلمى والفنى ، وهو أرفع وسام تمنحه النمسا الجديدة لرجال العلوم والفنون ، ولا تمنح منه إلا لممثلى أربع وعشرين دولة فقط ؛ وقد عاد سفين هيدين وهو يتحدث الى الهيئات العلمية والصحف الكبرى عن رحلاته واكتشافاته الجغرافية والعلمية فى المناطق والوهاد السحيقة التى تجول فيها مدى أعوام ؛ وأذاع سفين هيدين أيضاً عن حوادث التركستان الصينية ، وما وقع فى عاصمتها كشغر من الثورات والانقلابات معلومات نفيسة ، وقد كان هنالك وقت اضطرام المعارك الأهلية فى تلك الأنحاء

وقد ولد سفين هيدين فى ستوكهلم سنة ١٨٦٥ ، ودرس فيها وفى برلين وأوبسالا ، وشغف منذ حداثته بالأسفار ، وتتلمذ للرحالة الألمانى الشهير البارون فون رختهوهن ، وقد بدأ رحلاته مذ كان طالباً بالسفر الى العراق وفارس فى سنة ١٨٨٥ ، وفى سنة ١٨٩٠ أرسلته الحكومة السويدية عضواً فى السفارة التى أرسلها الملك أوسكار الى شاه الفرس ، وفى سنة ١٨٩١ ، اخترق خراسان والتركستان حتى كشغر ، ويبدأ عمله كمكتشف أسيوى فى سنة ١٨٩٣ ، حيث بدأ فى اختراق آسيا الصغرى من أورنبورج الى بكين ، وقد سافر عن طريق لوبنور وهضاب التبت ، وأنفق فى رحلته أربعة أعوام واكتشف خلال هذه الفترة آكام مستجاستا الثلجية ، والجبال الواقعة حول منابع يرقند داريا ، واكتشف أطلال مدينة بوذية قديمة فى صحراء تكلا ماكن ، وفى سنة ١٨٥٩ قام برحلته الأسيوية الثانية ، وفيها سار فى نهر تاريم حتى بحيرة لوبنور ، واكتشف حول البحيرة آثار حضارة صينية قديمة ، ثم اخترق التبيت ، وحاول عبثاً أن يدخل مدينة لاسا ، وهى مدينة « اللاما » المقدسة ، وفى سنة ١٩٢٦ قام برحلة ثالثة فى آسيا ، وقام برحلات أخرى فى الهند والهملايا ، وغيرها ، وله مؤلفات كثيرة شائقة منها : رحلة الى خراسان وتركستان ـ خلال آسيا ـ مخاطرات فى التبت ـ نتائج علمية لرحلة فى أواسط آسيا ـ من القطب الى القطب ـ مع الجيوش الألمانية فى الغرب ـ بغداد وبابيلون ـ التبت الجنوبية ـ حياتى كمكتشف ، وغيرها

الرياضة والثقافة

كان من الآثار الاجتماعية التى أحدثتها الحرب انتشار الروح الرياضى بين الشباب بسرعة مدهشة ؛ وكان هذا الروح قبل الحرب محدود المدى ، وكان كثير من الآباء يخشون على أبنائهم من أن يحملهم تيار الرياضة فيهملوا دروسهم ومدارسهم ، وكان الاعتقاد الغالب هو أن الشباب الذين يشغفون بالرياضة هم أقل ذكاء واجتهاداً من أقرانهم ؛ وفى غداة الحرب تطورت هذه الأفكار القديمة واكتسح الروح الرياضى مجتمع الشباب ذكوراً وإناثا ، وغمر شغف الرياضة فصول المدرسة والجامعة ؛ وذاعت النظريات الرياضية الجديدة عندئذ ، فقيل إن الجنس الأبيض مدين بتفوقه الى الحركة والرياضة ، وأنه ينشط متى تحرك ؛ وأصفى ما تكون العقول عقب الركض أو الكرة أو الصمود أو السباحة أو غيرها من صنوف الرياضة . ولكن ناحية واحدة لم يوفق دعاة المدرسة الجديدة الى تحقيقها ، هى خلق الأدب الرياضى والثقافة الرياضية ؛ فقد لوحظ أن أولئك الذين يشغفون بالرياضة قلما يقرأون ، ولا يقرأون حتى كتب الرياضة ذاتها ، فعقولهم وأذهانهم دائماً فى معزل عن اجتناء متعة القراءة والرياضة العقلية ، ولهذا لم يجد الأدب الرياضى سبيله حتى اليوم الى دور النشر ، ومازالت دور النشر تأباه وتعترض عليه ، وتحرص ألا تتورط فيه ، وهذه أول ظاهرة سيئة تلازم الحركة الرياضية

بيد أن هنالك ظاهرة أهم وأخطر ، هى اليوم موضع الجدل فى فرنسا ، وذلك أن الأساتذة والمفكرين قد أخذوا يتوجسون خيفة من عواقب هذا التيار الرياضى الجارف ؛ ويقول كثير منهم اليوم إن الانهماك فى الألعاب الرياضية الى هذه الحدود يخشى أن يسفر عن عواقب سيئة فى تكوين النشء ؛ وأن يخرج للأمة شباباً من الذكور والأناث ؛ يتمتعون بأجسام وهيئات حسنة ؛ ولكن بعقول وأذهان ضيقة ؛ لا يسهل فهمهم ولا يحتمل التفاهم معهم ؛ يضيقون ذرعاً بالايضاح والتروى ؛ ويجنحون الى الايجاز والتحكم ، وهذا مايلاحظ اليوم على معظم الشباب الرياضى ؛ وفى رأى هؤلاء أن الشباب الرياضى إنما هو عنصر منحط من الوجهة العقلية والثقافية ؛ وإذا كانت الرياضة تبعث النشاط الى العقل ؛ فان الانهماك فيها من جهة أخرى يحول دون ثقافة الذهن ومرونته ؛ ولا سيما فى هذا العصر الذى ضاقت فيه الأوقات ؛ وحملت السرعة كل مجتمع ؛ ولم تبق أمام النشء فرصة للارتواء من تلك المناهل الثقافية التى أتيحت لآبائهم . فهل تكون هذه الدعوة بدء انحلال فى الحمى الرياضية التى تغمر المجتمع ؟ هذا ما سيبدو لنا فى المستقبل القريب

هبة فنية

من أنباء فينا أن أكاديمية الفنون الحية قد تلقت وصية من سيدة كبيرة ، توصى فيها إليها بمجموعتها الفنية النفيسة . والسيدة المذكورة هى زوج المستشار السابق البرخت شميت ، وكانت من أكابر الهواة ، وقد جمعت فى حياتها كثيراً من التحف الفنية النادرة ؛ وفيها صورة أصلية من صنع تنتيرتو وهو من أعظم مصورى إيطاليا فى القرن السادس عشر ، ومنها آنية بديعة من المرمر تقدر بمئات الألوف ، وتحف ثمينة أخرى

الشاعر الفرنسي لوى مارسالو

لم يكن لوى مارسالو الشاعر الفرنسي الذى توفى أخيراً ، شاعراً كبيراً فقط ، ولكنه كان أيضاً صحفياً ذا أسلوب ساحر ، وكان مؤلفاً مسرحياً تنال قطعه المسرحية فى الكوميدى فرانسيز أعظم تقدير واستحسان . بيد أن مارسالو اشتهر كشاعر قبل كل شىء . وقد ظهر له أول ديوان شعرى ، سنة ١٨٨٦ وهو فى الثانية والعشرين فقط بعنوان « القبلات الضائعة » ؛ وهو بريتانى الأصل ولد فى بريست سنة ١٨٦٤ ، وقدم إلى باريس فتى ، وانخرط فى سلك جماعة أدبية كان فيها شارل كروس ومارى كرسنسكا وجورج لوران ؛ ولم يبق منها حياً إلى اليوم سوى جان أجالبر . وقد ظهر فى ديوانه الأول « القبلات الضائعة » مبلغ تأثره بمناظر وطنه الأصلى ، وتقاليده وكبريائه الطبيعية . ثم كتب مارسالو بعد ذلك للمسرح فصادف فيه نجاحاً عظيماً . ومن قطعه المشهورة ، « الملك المغرم » « شريط بسيشيه » وقد مثلتا مع غيرها من قطعه فى الكوميدى فرانسيز ، و « قلبه الصغير » و « ملاهى باريس » التى كتبها مع جورج كورتلين أمير الفكاهة ، و « شخص يعكر الحفلة » وغيرها وقد مثلت فى مسارح باريس الكبرى ، وكان مارسالو صحفياً ونقاداً بارعاً يعمل فى بعض الصحف الباريسية ، ولكن النزعة الشعرية كانت تغلب عليه دائماً

معهد للدراسات السياسية

أنشئ فى باريس معهد للدراسات السياسية الخارجية ، واشترك فى إنشائه جامعة باريس ومدرسة العلوم السياسية ، ومكتبة الوثائق الدولية المعاصرة ، وجماعة الدراسات الدبلوماسية ، وقد زود هذا المعهد بمكتبة سياسية عظيمة تشمل نحو مائة وأربعين ألف مجلد فى مختلف المسائل والشئون الدبلوماسية ، والوثائق والمعاهدات والمذكرات السياسية ؛ وسينقسم المعهد إلى أقسام يلتحق بها الاخصائيون فى كل ناحية من النواحى التى يعنى بها سواء أ كانوا من أساتذة الجامعات أم رجال السياسة ، أم رجال الأعمال ، أو الصحفيين السياسيين . وأهم أعماله الثقافية تنحصر فى تنظيم محاضرات ودراسات سياسية عالية : وقد افتتح المعهد دورته الحالية بالقاء محاضرة موضوعها « نهوض العالم العربى وأثره فى أفريقية الشمالية » ألقاها الكبتن مونتانى مدير المعهد الفرنسى بدمشق ، تحت رياسة الأستاذ شارليتى مدير جامعة باريس ، واشترك فى مناقشة الموضوع جمع من أعلام الأساتذة والساسة

والظاهر أن غاية هذا المعهد ترمى قبل كل شىء إلى خدمة السياسة الفرنسية وتوجيهها إلى ما يحقق مصالح فرنسا الخارجية والاستعمارية ، وذلك بدرسها على ضوء التطورات السياسية الدولية

الكتب

المختار من شعر بشار

بقلم محمد فهمي عبد اللطيف

بشار بن برد شاعر مطبوع خلاق ، نقل الشعر العربي من جفوة البداوة إلى رقة الحضارة ، فنهج به في الأداء منهجاً مطرد القياس ، سهل المخرج ، وحمله من المعاني كل بديع مخترع ، فسمي لذلك أبا المحدثين وشيخهم . ولقد كان فوق ذلك ثرّ القريحة ، فياض الشاعرية ، واسع المجال ؛ حدث عن نفسه قال : لي اثنا عشر ألف بيت عين ، فقيل له هذا ما لم يكن يدعيه أحد سواك ! ! فقال : لي اثنا عشر ألف قصيدة لعنها الله ولعن قائلها إن لم يكن في كل واحدة منها بيت فرد

ولكن هذه الثروة الشعرية الضخمة ضاعت في أجواء العصور الخالية ، وذهبت بين سمع الأرض وبصرها ، ولم يصلنا منها إلا نتف قصيرة جاءت في الأغاني وفي غيره من كتب الأدب والتراجم . ولقد أخبر العلامة المرحوم أحمد تيمور باشا منذ سنين بأن نسخة خطية من ديوان بشار موجودة في تونس لدى الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب عضو المجمع العلمي بدمشق وأنه شارع في طبعه وإخراجه ، فتلهفت نفوس الأدباء على تحقيق هذه الأمنية العزيزة ، وكتب بعضهم في مجلة المجمع العلمي يستحث همة الأستاذ حسن حسني على الأنجاز ، وتقدم السيد بدر الدين العلوي بكلمة قال فيها إنه وجد نسخة عنوانها : المختار من شعر بشار في حيدر آباد بالهند ، وهي من اختيار الخالديين أبي بكر وأبي سعيد شاعري سيف الدولة وخازني دار كتبه ، وعليها شرح من عمل أبي الطاهر اسماعيل بن أحمد بن زيادة من أدباء القرن الرابع ، ثم ذكر أنه يستعد لطبع هذا المختار وإخراجه في أقرب نهزة بمساعدة الأستاذ عبد العزيز الميمني المدرس بجامعة عليكرة ، ثم ناشد الأستاذ حسني عبد الوهـــاب أن يعينه وأن يخبره عن النسخة الموجودة لديه فلعلها تكون نسخة أخرى من المختار ، ولكن الأستاذ حسني ضجّع في الأمر ولم يسعف ، وبقي الأستاذ بدر الدين عند وعده وما زال حتى أدى الأمانة ووفى دين العربية فدفع بالمختار منذ حـــين إلى « لجنة التأليف والترجمة والنشر » فجلتـه للناس في ثوب قشيب ، صقيل الورق ، جيد الطبع ، دقيق التصحيح ، مستوفي البيانات والتعاليق ، مذيلاً بالفهارس الكاملة ، والفوائد المتممة ..

ولقد قرأت الكتاب فرأيته لا يشتمل على مقدار كبير من شعر بشار ، ولكن أكثر ما به من القصائد والمقطوعات لا يوجد في غيره من كتب الأدب المعروفة . ويبدو لي أن الكتاب لا يشتمل على كل ما اختاره الخالديان بدليل قول الشارح : « ورأيت بعد نظري في اختيار الخالديين وما اخترته منه .. ص ٨ » ، وقوله في النهاية « انتهى اختيارنا فيما وجدناه من المختار من شعر بشار .. » ، فكأنه قد اختار بعض ما اختاره الخالديان ، بل إن كلمة « وجدناه » تدل على أن ما اختاره الخالديان لم يقع جميعه للشارح

أما الكتاب من حيث هو فروض أدب حافل ، يأتي عليه القارىء بلذة وشغف ؟ فقد نهج الشارح في شرحه منهج الاستطراد ، يذكر أبيات بشار ثم يشرحها شرحاً لغوياً وافياً إن كان بها من الألفاظ ما يستغلق على القارىء ، ثم يذكر ما لها من الأشباه والنظائر لفظا ومعنى في شعر المتقدمين الذين أخذ منهم بشار ، أو المتأخرين الذين أخذوا عن بشار ؛ والرجل يطيل كثيراً في سرد الأشباه والنظائر كأنه يباهي بكثرة محفوظه ، وقد يذكر ما يتصل بذلك من أخبار الشعراء ونوادرهم مما جعل الكتاب حافلا ممتعا ، تظن وأنت تقرأ فيه أنك تقرأ في « البيان والتبيين » أو في « زهر الآداب » أو في غير ذلك من الكتب التي تشتمل على أمشاج من الأدب ، وصنوف من المعارف ..

وقد يكون من الأنصاف أن نذكر بالثناء المجهود الكبير الذى بذله الأديب الناشر فى اخراج الكتاب وضبطه وتصحيحه وتعليق الفوائد عليه وتخريج أبياته ، كما لا يفوتنا أن ننبه إلى بعض هفوات قد ندت عن خاطره اليقظ ، فمن ذلك أنه نظر فى قول الشارح : « ولكنه لتراخى الحالب وتضجيعه ص ١١٢ » فلم يطمئن لكلمة تضجيعه وقال لعلها تضييعه ، وكلمة التضجيع أصح وأدق وهى التى أرادها الشارح ، فانه يقال ضجع فلان فى الأمر إذا تراخى فيه وأهمله

ومن ذلك أنه قيد كلمة « الحبوة » بالضم فى قول الشارح « فما حل حبوته ولا كلمهم حتى قضى سبحته ص ١٩٣ » وإنما هى بالكسر ، أما بالضم فمعناها العطاء ولا يصح هذا المعنى فى هذا التركيب

ومن ذلك أنه علق على قول عدى بن الرقاع (ص ٢١٦)

فكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جآذر (عاسم)

فقال يروى عاسم وجاسم ، وذكر أن عاسماً اسم موضع ، قلنا وقد جاءت الكلمة فى الشعر والشعراء بالغين المعجمة ، وحقيقتها جاسم بالجيم اسم قرية بالشام قريبة من دمشق وقريبة من موطن الشاعر ، وقد وردت فى قول حسان :

فالمرج مرج الصفرين (فجاسم) فديار سلمى دُرَّساً لم تحلل

ومن ذلك أنه أورد قول ابن الرومى (ص ٢٣٥)

وما تعتريها آفة بشرية من النوم إلا « أنه تتحير »

فأثبت (أنه) بالهاء كما فى الأصل ، ورأى أن كلمة تتحير تصحيف تتخثر ، وهذا تخريج يفسد معنى البيت ويتجه به إلى الهجاء وما أراد ابن الرومى إلا وصف محبوبته بالحسن ، وإنما صحة القول « ألا أنة تتحير »

ومن ذلك أنه حسب كلمة الحضر محرفة عن الخفر فى قول الشارح : « فهذه القبنة من أهل الكفاية والترفه والحضر ص ٢٥٧ » ، وعندنا أن كلمة الحضر هى المتعينة فى هذا المقام فقد عقب عليها الشارح بما يعينها فقال « وليست ممن يمتهن ويبتذل فى رعى الغنم والأبل أى أنها من أهل الحضارة لا من أهل البداوة » وهذا ما يريده بشار فى البيت الذى يتولى الشارح تفسيره بهذه الكلمات

على أن هذه هنات طفيفة خفيفة لا تغض من قيمة كتاب قل أن تخرج المطابع مثله دقة فى التصحيح والتنقيح ، فالشكر الجزيل للأستاذ الناشر على جهده واهتمامه ، وللجنة التأليف والترجمة والنشر على عنايتها بأخراج هذا الكتاب الذى لا يستغنى عنه أديب .. ؟

محمد فهمى عبد اللطيف

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر